نَحوُ النظريَّة

خَلقًا

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2020م

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: Dr-Aqeel.com

المحتويات

المقدِّمةُ.. 3

المخلوق.. 19

خَلق الكون 21

الانبهار العظيم 33

التمدّد الكوني 39

خلق الأكوان.. 53

التمدّدُ المِمكِنِ والمطلق... 55

الانكماش الكوني 57

الفراغ المكاني 90

الفراغ حاضنة الأشياء 93

العدم.. 103

موت الموت 110

صدر للمؤلّف 166

المؤلّفات 167

المؤلّف في سطور... 182

المقدِّمةُ

أقدِّم إلى القراء والبحَّاث والمتابعين للمستجدات العلميَّة مؤلّفي: (نحو النَّظريَّة خلقًا)، إنتاجًا جدليًّا مؤسَّسًا على تساؤلات وفرضيَّات موضوعيَّة مستمدَّة من قوانين الخلق، والفيزياء، فكان الجدل فيه وضوح حُجَّةٍ وبرهانٍ مع بعض المنظِّرين، وعلى رأسهم المنظِّر الأمريكي: (لورنس كراوس) المتبني لنظريَّة: (الكون خلق نفسه ولا خالق له).

كان الجدلُ في هذا المنتج العلمي موضوعيًّا بين حُجَّتين:

الأولى تقول: (الكون خالق نفسه ولا خالق له).

الثانية تقول: (وراء كل مخلوق خالق).

وكان الجدل واسعًا، وبلا حدود، ولكن نتائجه كانت متناهية بين بيِّنةٍ تسندها الحُجَّة: (البرهان والدليل شاهدًا)، والتباسٍ في الحُجَّة والبرهان.

وكان التركيز بداية على فعل الخَلق؛ كونه لا يكون مفعولًا إلّا بفاعلٍ، ومن هنا بدأ تفكيك المركَّب بين فعل الخَلق، وفاعله، من حيث:

هل خَالِق نفسه يستطيع أنْ يخلق غيره؟

وهل الذي خلق نفسه (الكون) خلقها في مكانٍ وزمانٍ، أم أنَّه خلق نفسه خارجهما؟

وهل يمتلك خالق نفسه مقدرة عقليَّة تُمكِّنه من حُسن التدبُّر في إيجاد هيئة سابقة على الشكل، ثمَّ بعد ذلك كانت له المقدرة على تنفيذ فعل الخلق وفقًا للهيئة التي لا بدَّ أن تكون سابقةً عليه؟

وإذا كان الكون خالقًا لنفسه، فهل يعلم بمن خُلق، ويُخلق من بعده؟

وإذا سلَّم البعض أنَّ الكون خلق نفسه، ولا خالق له، فكيف يقبلون به خالقًا وفي الوقت ذاته مخلوقًا؟ كونه خلق نفسه؟

وهل يمكن أن يكون الكون كونًا لو لم يكن هناك حيِّزٌ لاستيعابه مكانًا؟

إذا سلمنا بذلك؛ إذن فمن الذي خلق الحيِّز والزَّمان اللذين خَلَقَ الكون فيهما نفسه؟

وكما يقولون: الكون نتاج ذلك الانفجار العظيم لتلك الذَّرة المتناهية في الصِّغر، إذن؛ فمن الذي خلق تلك الذَّرة المتناهية في الصّغر؛ كونها السَّابقة وجودًا؟

وعليه: كان أوَّلًا: الاهتمام بمفهوم فعل الخلق، وثانيًا: كان الاستشهاد بالمقدرة الخلقيَّة المطلقة التي تخلق القوَّة بالقوَّة أمرًا؛ ولذا فكان من الأهميَّةِ أن نميِّز بين خلق اللاشيء، وخلق الشيء مع تبيان الأسبقيّة.

وأحب هنا أن أسجل خالص شكري لأخي الدّكتور علي عبد الرزاق عبد القادر الأستاذ العراقي الأمريكي بجامعة كليفلاند بأوهايو في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، الذي أرسل إليَّ رقم هاتفه من خلال تواصله مع موقع مكتبتي الخاص، وطلب مني قائلًا: هناك موضوعٌ مَثار خلاف بين من يرى: أنَّ الكون قد خلق نفسه ولا إله خالقه، وبعض المؤمنين من المسيحيين والمسلمين الذين ردوًا عليه بآلاف المقالات، ولكنَّها كما يقول: غير مقنعة؛ فنأمل منك سيادة الدكتور الخوض العلمي في هذا

الموضوع، وأنا واثق من خلال قراءاتي لكثيرٍ من كتاباتك أنَّك ستكون أفضل من يكتب تحليلًا وتعليلًا موضوعيًّا.

فقلت: الأمر ليس هينًا، الموضوع يتطلّب إلمامًا ببعض النظريَّات الفيزيائيَّة، فقال: عليك بها، ونأمل ألا تكلّ ولا تمل؛ فالموضوع يستوجب البحث.

فتوكلت على الله الذي ليس لي إلَّا حمده وشكره، وتسبيحه، وعبادته، ودعاءه كريمًا سميعًا قريبًا رقيبًا مجيبًا.

وبدأت الكتابة بعد القراءة الواسعة في دائرة الممكن، وكنت أُحيل ما أكتبه إلى الدكتور علي عبد الرزَّاق؛ بغرض المراجعة العلميَّة، فكان مؤيّدًا لما أكتب، وإن مدَّني بملاحظة فلا أغفل عنها بحثًا، وعندما أتممت الإنتاج العلمي أطلق الدكتور علي عبد الرزَّاق مشكورًا على هذا الجهد مسمَّى: نحو النظريَّة (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء).

أحلت الإنتاج البحثي إلى دار النشر (المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر) القاهرة؛ فَقُبل للنشر، وبعد أسبوع جاءني الناشر في منزلي بالقاهرة، وطلب مني تغيير العنوان قائلًا: أريد عنوانًا تجاريًّا، فقلت: يمكن أن يكون (من معجزات الكون)؛ ففرح بهذا العنوان، وقام بنشره، وعندما أرسلت أوَّل نُسخة للأستاذ الدكتور علي كان غير راضٍ عن تغيير العنوان؛ بل كان محتجًّا على التغيير؛ ولهذا قرَّرت إعادة الطباعة والنشر تحت العنوان الذي اتفقنا عليه سابقًا وهو: نحو النظريَّة (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء) مع فصل المجهود إلى ثلاثة مؤلَّفات، أوَّلها: نحو النظريَّة خلقًا،

وسيكون ثانيها: نحو النظريَّة نشوء، وثالثها: نحو النظريَّة ارتقاء؛ وذلك بغرض إظهار خصوصيَّة كلّ متغيرٍ من المتغيرات الثلاثة، وكذلك لتخفيف العبء عن كاهل القراء.

أ د. عقيل حسين عقيل

١

تمهيد

تأسّست النظريَّة على قواعد ثلاث: خَلق كوني دونه المستحيل، ونشوء خَلق دونه الإعجاز، وارتقاء في دائرة الممكن دونه الاثنين معًا، ومع ذلك فالكلّ بين متحقّق ويتحقّق، والتساؤلات التي تأسّست عليها النظريَّة:

هل الكون خالقٌ، أم مخلوق؟

هل الكون نتاج الانفجار العظيم، أم إنَّه نتاج الانفتاق العظيم؟

هل الكون واحد، أم إنَّه متعدّد؟

هل النّشوء مستقل بذاته، أم إنَّه خَلق مترتّب على خَلقٍ؟

هل الخلق ارتقاء، أم الارتقاء لا يزيد عن كونه أملًا؟

هل الارتقاء في دائرة الممكن، أم إنَّه المتجاوز لها؟

هل الارتقاء أمل ماضٍ، أم إنَّه مأمولًا آتٍ؟

هل الإنسان خُلق على الارتقاء، أم إنَّه المتطوّر من أجله؟

فإنْ كان الكون خالقًا؛ فالخالق يخلق غيره، وإن كان المخلوق؛ فالمخلوق كما يسبقه الخالق، يسبقه الحيّز الذي يُظهره وجودًا، وإن كان كذلك؛ فالزّمان والمكان لا يعدّان جزءًا منه، بل هما السّابقين عليه.

ولأنَّه لا شيء قبل الخَلق إلّا الهيئة التي سيكون المخلوق عليها شكلًا أو صورةً؛ فالهيئة غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وهي لا تدرك

إلّا من قِبل الخالق، وهذا الأمر يشير إلى ضرورة المقدرة المطلقة لخلق أيّ شيء، ولا شيء.

ومع أنَّ البعض يرى أنّ المخلوق خُلق من اللاشيء، ولكن بعض علماء الفيزياء أثبتوا أنَّ اللاشيء هو الآخر مخلوقٌ، أي: لو لم يكن اللاشيء مخلوقًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه أصبح بين إثبات ونفي؛ فهو لو لم يكن ما كان بينهما.

والتساؤل هنا:

إذا أصبح البحث في اللاشيء بين يدي البحاثة في علم الفلك والفيزياء؛ فهل يعدّ اللاشيء سابقًا على كلّ سابق، أم أنّ هناك سابقًا عليه؟ وهل السّابق عليه مخلوقٌ أم إنَّه الخالق؟ وهل الشيء كان نشوءًا من لا شيء، أم إنَّ النّشوء لا يكون إلّا من شيء؟

ولأنَّ النّشوء لا يكون إلّا في شيء؛ فهو في الوقت ذاته لا يكون إلّا منه.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق مسيّرًا في أحسن تقويم، فإنَّه اختيارًا انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقيَّة أخذته الصّحوة، والحيرة تملأ نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتم ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر، وهو: الهبوط به وبالأرض أرضًا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقيَّة، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاء.

ولذا؛ فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة إليه مجرّد أملٍ. ومع ذلك فالأمل لا يتحقّق إلّا عملًا، فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل فلا ارتقاء.

أمّا بالنّسبة إلى النّشوء فهو نتاج خلق الشيء من الشيء ارتقاء، كما هو خلق الكون، ثمّ خلق الأرض فيه وجودًا، ثمّ خلق الأزواج منها، كما هو شأن آدم وزوجه، اللذين خُلقا من تراب الأرض جنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماء.

ولذلك، كان الخَلق أوّلًا، ثمّ جاء النّشوء مترتّبًا عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة؛ فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقًا للإرادة والرّغبة التي تمتدّ بين شهوة عاطفيَّة، وخُلقٍ وحُسن تدبّر وضبط ضمير.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، خُلق على الارتقاء والأرض مرتقة في السّماء جنّة، ولكن بعلّة الشّهوة اختار أن يسلك سلوك المنحدرين دونيَّة؛ فأصبح النّعت سُفليّة يلاحقه منذ تلك السّاعة التي انحدر فيها؛ حيث لا منقذ له بعلل الاختيار انحدارًا.

ومع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، فإنَّه بالنّسبة إلى آدم يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقًا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا؛ فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، فإنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنَّ الجنّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍّ، أمَّا الأمل فظل منقطعًا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا.

ولأنَّ قواعد النَّظريَّة: (خلق ـ نشوء ـ ارتقاء) فهي ذات علاقة بأضلاع ثلاثة: (المستحيل ـ الإعجاز ـ الممكن)؛ ولهذا فحيثما كان الخلق كان المستحيل، وحيثما كان النّشوء كان الإعجاز، وحيثما يكون الارتقاء يكون الممكن.

ومع أنَّ الممكن ليس بمستحيلٍ، فإنَّ فيه من الصّعب ما فيه، وعلى الرَّغم من ذلك يتحقّق على أيدي البعض ارتقاء، ويتحقّق على أيدي البعض الآخر دونيَّة وسُفليّة؛ ولهذا فالممكن فيه من الموجب، وفيه من السالب ما يساويه، وفيه من المتوقَّع، وفيه من غير المتوقَّع ما يساويه.

ومع أنَّ الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع، فإنَّه ليس كلّ شيء ممكنًا؛ فهناك المستحيل الذي لا يخرقه إلّا معجز، وهناك المعجز الذي لا يخرقه إلّا ممكن، أي: إنَّ المستحيل لا يتحقّق إلّا مستحيلًا كما هو حال خلق الأكوان، وفتق الأرض منها، وهبوطها والأزواج على ظهرها إلى الحياة الدّنيا.

ولذلك؛ فالخَلق صُنع الخالق، ولا إمكانيَّة للتمكّن منه فعلًا أو عملًا، أمّا النّشوء؛ فهو المعجز الذي يخلق من الشيء أشياء، كما هو حال الأرض وخلق كثير من الأزواج منها، ثمّ النّشوء التزاوجي ومعجزة الخلق من النّطفة، ثمّ الإظهار على علم الغيب، وهو المعجز الذي أصبح في دائرة الممكن نبأ ورسالات بين أيدي من اصطفاهم الخالق أنبياءً ورسُلًا عليهم الصّلاةُ والسّلامُ.

ومن هنا، أصبح علم الغيب في دائرة الممكن بين أيدي النّاس معجزة تبشّر بما يجب، وتنهى عمّا لا يجب، وترشد للحقّ، وتحرّض عليه.

فكان الارتقاء تطوّرًا من الجهل إلى العلم، ومن محاكاة الطّبيعة وحياة الفطرة والأساطير والخرافة، وحياة المحاكاة تقليدًا بلا حُجّة عن غير بيّنة، إلى حياة المعرفة الواعية، والفكر المستنير الذي تلاقح بالعلم المعجز من عند الله على أيدي الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاةُ والسّلامُ، فأنتج عصرًا جديدًا، فيه تُولّد الفكرة من الفكرة، وفيه أصبحت المحاجّة بين النّاس المختلفين والمتخالفين بيّنةً ودليلًا، وفيه العبر والمواعظ تؤخذ من التّاريخ، وفيه الحقوق بين النّاس تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسؤوليات تُحمل عن إرادة. ومع ذلك؛ فالصّدام والخصام والاقتتال بين النّاس ظل في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع.

ولهذا؛ فالحياة البشريَّة لم تؤسّس على الاتفاق، بل تأسّست على الاختلاف، وسيظل النّاس على الاختلاف إلى النّهاية، إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ

رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}[1] ومن ثمّ؛ فلا اتفاق بين النَّاس، بل الاتفاق لم يبق بينهم إلّا أملًا، ولا يسعى إليه إلّا الواعون الذين لا تأخذهم الغفلة كما أخذت أباهم (آدم) عليه السّلام في لحظة الإغواء والشهوة، عندما عصى ربّه، وأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها.

ولذلك وجب التذكّر؛ حتى لا تتكرر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يمكّن من معرفة الكيفيَّة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومعرفة المعجز معجزًا، ومعرفة الممكن ممكنًا.

ولذا، لا ينبغي أن يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما، ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمّ، يعدّ التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، ممّا يخلق ارتباكًا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجهما محمودة؛ فالتفكّر ارتقاء لا يكون إلّا واقعًا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له؛ فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه.

والتفكّر ارتقاء هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النّاس حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ لكونه يرتبط بالخوف؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابيَّة المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتًا، وهذا ناتج عن الإدراك غير

[1] هود: 118، 119.

الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزًا مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعيَّة وغير طبيعيَّة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرًا يمنح الإنسان وعيًا، ويمكِّنه من الارتقاء إلى ما يجب.

الخَلقُ

الخَلقُ فعل لا يكون مفعولًا إلَّا بفاعل، وهو صفة الخالق التي خصَّ نفسه بها دون سواه، ومع أنَّه لا يجوز الادعاء به، فإنَّ بعضًا من الفيزيائيين قد ادَّعى وجود خالق نفسه، مع أنَّ من قالوا عنه خالق نفسه (الكون) لم يدّعِ ذلك؛ لكونه فاقدًا للمدركات الواعية الممكّنِة من المعرفة.

فالخَلقُ إيجاد ما لم يكن من قبل موجودًا، وهو كيفيَّة غير مسبوقة، به تُبدع الهيئة، ويبدع المشاهد والملاحظ والمتمدّد والسّاكن؛ فالخلق فعل الخالق، وهو المقدرة المطلقة على إيجاد الشيء واللاشيء؛ إذ لا شيء قبل الخلق إلّا الخالق.

فالخلق تكاثر زوجي: (سالب وموجب، ذكر وأنثى) مؤسّس على التضادّ، ثمّ على التنوّع والاختلاف، والتجمّع والافتراق، والتمدّد والانكماش، والحياة والموت، فيه البداية حياة دنيا منتهية، وفيه النّهاية حياة بعث دائم.

ولأنَّه الخلق؛ فلا خلق إلا لهدفٍ وغرضٍ وغايةٍ، وهذه جميعها مجرّدة؛ فلا تُخلق خلقًا، بل تدركها العقول إدراكًا، حيث لا المادّة ولا الرّوح تخلقها، بل تُبثّ بثًّا من العليم إلى من يتعلّم.

ولأنَّ الكون لم تكن له صفة العليم؛ فكيف له ببث هدف يتحقّق، أو غرضٍ يُنجز، أو غاية يتمّ بلوغها؟

ولأنَّه لا هدف، ولا غرض، ولا غاية للكون من خلق نفسه، إذن: فمن أجل من خَلق الكون نفسه؟ وإلّا هل خَلق نفسه عبثًا؟ وكون بلا

غاية لا يمكن أن يدرك ما سيلمّ به من تجمّد وانكماش وانفجار وتبعثر ونهاية، كون يجهل ما سيلم به، كيف له أن يكون خالقًا؟ ثمّ على أيّة قاعدة تأسّس قول البعض: (كونٌ خُلق من لا شيء، ولا خالق له)؟

ولأنَّ الخالق (يَخلق ولا يُخلق)؛ فهو القادر على إظهار هيئة الشيء قبل أن يكون شيئًا، ذلك لأنّ هيئة المخلوق سابقة على خلقه؛ فهيئة الكون في علم خالق الكون هي سابقة على خلقه كونًا؛ ولذلك فالخالق هو: مُوجد هيئات الخلائق قبل أن يجعلها أشياء على الصّور والأشكال، سواء أكانت متناهية الكبر، أم متناهية الصّغر (الشيء واللاشيء).

ولانَّ هيئة المخلوق تسبق خلقه شيئًا؛ فهل هيئة خلق الكون كانت مسبوقة عنده قبل أن يخلق نفسه كونًا من لا شيء؟

ولأنَّ الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلقه غيره، إذن؛ فكيف للكون يخلق نفسه من لا شيء؟ ولأنّ الخالق له صفة الخلق؛ فهل للكون هذه الصّفة التي لا تنقطع، أم إنَّ الكون خلق نفسه من لا شيء، ومن بعدها خسر صفته؟ وهل الكون خلق نفسه بصفة الخلق؟ أم إنَّه خُلق عليها؟ أم إنَّه خُلق بدونهما؟ أي: هل صفة الخلق هي التي خلقته، أم إنَّه هو الذي خلقها؟

فإن كانت صفة الخلق خالقة للكون؛ فهي سابقة عليه، وإن كان خالقها؛ فهو السّابق عليها، وإن خُلق معها فلا بد من خالق لهما.

وإذا كانت صفة الخلق سابقة على الكون من لا شيء؛ فمن الذي خلقها لتكون صفة خلّاقة؟ وإذا قال البعض: إنّ صفة الخلق قد وُلدت في الكون ولادة؟ فالسؤال:

من الذي ولدها؟

وممّا ولدت؟

وكيف ولدت؟ ومتى؟

ولأنَّه لا إجابة قاطعة للشّك، إذن: فمقولة: (الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له) أصبحت حُجَّة بلا حُجَّة {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}[2]، وإذا سلّمنا افتراضًا أنّ: (الكون خُلق من لا شيء ولا خالق له)؛ فلا بدّ أن نسلّم بأسبقيّته على كلّ خالق، ولكن الخالق يقول: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[3]؛ فما الرد؟

ولأنَّ صفة الخلق سابقة على وجود الكون؛ فكيف للكون بخلق نفسه؟

ولأنَّ قاعدة المنطق العلمي تنصّ على أنّ: (الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلق من غيره) إذن: فكيف للكون بهذه الصّفة الخلقيَّة؟

ولأنَّ الكون لا يخرج عن كونه شيئًا؛ فالشيء لا يمكن أن يكون إلّا مخلوقًا. ولأنَّه المخلوق؛ فلا يمكن أن يكون خالقًا؛ فالخالق (لا يكون

---

[2] فاطر: 3.

[3] الواقعة: 60.

شيئًا، ولا يكون لا شيئًا، ولا يكون شيئًا آخر). بل هو الخالق، الذي يَخلق ولا يُخلق: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[4].

ولأنَّ القاعدة الخلقيَّة تنصّ على أنّ الخالق: (يخلق ويحيي ويميت)؛ فهل الكون يحيي ويميت؟ فإن لم يحي ويميت، لا يمكن له أن يكون مخلوقًا من لا شيء، ولا يمكن أن يكون من غير خالق؛ فالله تعالى لو لم يخلق الموت لكفر الجميع، ولأنَّه خلق، ويخلق، وأمات، ويميت؛ فهو الخالق ولا شريك له.

ولكن، لو خُلق الكون من لا شيء، ولا خالق له؛ لكان الكون على القوَّة الرّاعية لبقائه؛ ولأنَّه لا يمتلك ذلك؛ فهو المعرّض للتجمّد، والانكماش، والتبعثر، والانفجار، والفناء، والرَّتق.

ولأنَّ المنطق العلمي يقول: (الخالق يبقى والمخلوق يفنى)؛ فهل للكون هذه الصّفة التي تبقيه خالقًا؟

ولأنَّ الكون وفقًا لأحكام علماء الفيزياء سينتهي لا محالة، إذن: فلا علاقة له مع صفة الخلق التي ألصقت به.

ومن ثمّ؛ فقاعدة الخلق تنصُّ على أنَّ: (صفات الخلق تستمدّ من الخالق، ولا تضفى عليه)، إذن: فلا وجود لعلاقة تربط الكون مع صفة الخلق (كونه شيئًا مخلوقًا).

[4] النور: 45.

وصفات الله تعالى تستمدّ منه، ولا يستمدّ منها، ولا يمكن لأحد أن يصفه بأيّة صفة إلّا التي وصف بها نفسه، وهنا يكمن الإعجاز، وإلّا هل هناك من يستطيع استمداد صفة من اسم (الله)؟

لا أحد.

ولهذا، وصف الله نفسه: (الرّحمن الرّحيم الملك القدوس السّلام: وإلى النّهاية التي لا تنهي صفات الله).

إذن: فالخلق صفة الخالق، والغاية من الخلق البقاء، والقاعدة: (الحياة الدّائمة).

والاستثناء: (الموت والانتهاء)، {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[5].

وعليه: حتى وإن سلّم البعض بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لا شيء؛ فلا يمكن لهم أن يسلّموا بمقدرة الكون على خلق غيره، ولأنَّه غير قادر؛ فهو قاصر لا يمتلك صفة الخلق ومقدرة الخالق، فالخلق كيفيَّة غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وغير قابلة للجمع والطرح كما هو حال المخلوق القابل لكلّ ذلك؛ فالخَلق كيفي، والمخلوق كمي، ومن ثمّ؛ فالخَلق صُنع الخالق: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[6]؛ ولهذا فلا شيء قَبل الخَلق إلّا الخالق، ولا شيء بعد الخلق إلّا المخلوق.

---

[5] العنكبوت: 64.

[6] النمل: 88.

ومن دون مقارنة فالفرق كبير بين الخالق الذي لا يُخلق، والمخلوق الذي لا يَخلق؛ ذلك لأنَّ الخالق باقٍ ولا يبيد، والمخلوق يبلى وينتهي.

المخلوق:

المخلوق هو ذلك المفعول خلقًا، سواء أكان إنسًا أم جنًّا، أم ملائكةً، أم جمادًا، أم نباتًا، أم كائنًا من الكائنات الأخرى، وسواء أكان هيئةً، أم حيّزًا، أم فراغًا، وسواء أكان شيئًا، أم اللاشيء؛ ولذا فالمخلوق هو: كلّ من وُجد على كينونة ليست باختياره؛ فهو مخلوق يشاهد ويلاحظ ويُحسّ به. أمَّا ما يميّز المخلوق العاقل؛ فهو المدرك لغايته، وغير المدرك للغاية التي من وراء خلقه؛ فالغاية من خلق المخلوق لا يعلمها إلّا الخالق؛ ولهذا خُلق على التسيير والتخيير.

وحتى إن اعتقد البعض أنَّه بإمكانه مشاهدة الخلق من خلال مشاهدة أجنّة الأنابيب؛ فهو في هذه الحالة كمن لا يميّز بين (الخلق والمتخلّق)؛ ذلك لأنَّ ما يشاهد لم يكن (خلقًا) بل هو: (المتخلّق)؛ فالخَلق كيفيَّة بين يدي الخالق، فيها تنتقل هيئة المخلوق من مجرَّد إلى ملاحظ، ثمّ إلى مشاهد؛ ولذلك في مرحلة الخلق لا إمكانيَّة للمشاهدة، ولكن التحاليل المعمليَّة تثبت ملاحظة عمليَّة الخلق التي قد بدأت، ومن ثمّ؛ فلا شيء يشاهد في أثناء عمليَّة الخلق التي تسبق عمليَّة التخلّق القابل للمشاهدة.

ولأنَّ المخلوق لا يمكنه الدّراية بكيفيَّة خلقه؛ فهل يمكن له أن يدري كيفيَّة خلق من سبقه خلقًا؟ وهل يمكن للمخلوق الذي يجهل

كيفيَّة خلقه، أن يعلم كيفيَّة خلق الكون الذي لا يزال قاصرًا عن معرفة خفاياه؟

وهل الحكم الذي أقرّه بعض الفيزيائيين: (الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له) هو حكم مشاهد؟، أم حكم ملاحظ؟، أم أنَّه حكم مفسّر؟

فإن كان الحكم نتيجة المشاهدة؛ فلا بدّ أن يكون المشاهد قد حضر زمن خلق الكون، وهذا ضرب من المستحيل، وإن كان ملاحظًا؛ فلا بدّ من تجربة تخضع الكون للتجربة، وهذا ضرب آخر من المستحيل، ولكن إن كان تفسيرًا؛ فالتفسير دائمًا يرتبط برؤية المفسّر التي لا تخرج عن دائرة الممكن المملوءة بالشكوك والظّنون.

ولذلك؛ فالمخلوق مكوّن وجودي (مشاهد وملاحظ)؛ فالمشاهد منه يخضع للرّؤية، أمّا الملاحظ فيخضع للإدراك، والمخلوق لا يقتصر على البشر كما يظن البعض، بل هو كلّ مخلوق، سواء أكان شيئًا، أم لا شيئا (متناهٍ في الكبر، أم متناهٍ في الصّغر).

فالمخلوق مهما كبر وعظم لن يكون الخالق، وبالتالي؛ فهو مستوى دنيوي، فاقد لصفة البقاء والدّيمومة.

ومع أنَّ المخلوق البشري قد تميّز بحسن التقويم، لكنّه لا يقبل التسليم والطّاعة كما قبلت به بقيَّة الخلائق: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ}[7] هكذا هو الكون طائعٌ يسبّح بحمد خالقه (الله)، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[8] وفي المقابل: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[9].

خَلق الكون:

المعضلة هنا تتمركز على معرفة التعليل للتساؤلات الآتية:

من الذي أمر بانفجار تلك الذّرة حتى تمكّن الكون من خلق نفسه من ذلك الانفجار العظيم؟ ووفقًا لقواعد المنطق العقلي، هل خالق الشيء يكون خارج الشيء، أم يكون الشيء نفسه؟

ووفقًا لما يدَّعيهِ أصحاب نظريَّة: (الكون خلق نفسه، ولم يكن من وراءه خالق)، لِمَ لا يسمّونه الخالق بما أنَّه خَلق نفسه، ومن ثم يُحرِّرونه من ذلك المسمى الكوني الذي أطلق عليه نسبة للأمر (كن) فكان، وفقًا للأمر (كن) كونًا؟

والخَلق: مقدرة يمتلك الخالق أفعالها وأعمالها، وبها يختص ويتّصف، وبها يَخلق ولا يُخلق (يمتلكها ولا تمتلكه)؛ لأنَّها الصّفة التي تسبق المخلوق وتتبع الخالق.

والتساؤل:

---

[7] الإسراء: 44.

[8] فصلت: 11.

[9] الكهف: 54.

أيّهما أسبق وجودًا، (الخلق أم الكون)؟ فإن كان الكون كما يقول بعض علماء الفيزياء هو السّابق على الخَلق (خُلق الكون من لاشيء، ولا خالق له) فتساؤلنا: من أين استمدّ الكون صفة الخلق التي تملؤه: (شيئًا ولا شيئًا)؟

لقد اتفق الفيزيائيون على أنَّ الكون قبل أن يكون كونًا، كان نقطة ذريَّة، ثمّ انفجرت تلك النقطة المتناهية في الصّغر؛ فأصبح الكون من بعدها يتّسع بـ(الشيء واللاشيء)، ويتمدّد متسارعًا في كلّ الاتجاهات، وهو مملوء طاقة وحيويَّة ومجرَّات ونجومًا.

ولكن بعض الفيزيائيين أصدر حكمًا مفاده: (إنَّ الكون خُلق من لاشيء)، ومن ثمّ، يقولون: (لا خالق للكون)، وهذا الحكم يدفعنا لطرح تساؤلنا:

إذا سلّمنا افتراضًا أنَّ الكون خَلق نفسه من لا شيء، إذن: فمن الذي خلق تلك النقطة سبب وجود الكون؟ أم أنّ تلك النقطة الذّرية هي الأخرى قد خَلقت نفسها؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فهل تمكَّن هؤلاء الفيزيائيون علميًّا من معرفة تلك النقطة التي وصفوها بالذّرة قبل أن تنفجر؟ وهل هم متيقّنون علميًّا أنَّ تلك الذّرة لا توجد ذرات أخرى إلى جانبها؟ وإذا قبل البعض بخلق الكون لنفسه، ولا خالق له، إذن: فمن أين استمدّ الكون صفة الخلق التي يتحدّثون عنها؟ وهل حكمهم نتيجة إثبات حقيقة علميَّة، أم إنَّه نتيجة تفسير لما تمكّنوا من اكتشافه، وكأنَّه لا اكتشاف من بعده؟

وإذا أجزنا افتراضًا أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء؛ فلا بدّ من تعميم هذه الصّفة على جميع مكونات الكون وأجزائه الدّقيقة بما فيها نحن بنو آدم؛ ذلك لأنَّ الصّفات تنقل وراثيًّا (سلالات، وأطوارًا، وأجيالًا) إلى النّهاية.

فإذا اعتمدنا هذا الحُكم؛ فلا شكّ أنّنا قادرون على خلق أنفسنا، وفقا لصفة الخلق التي يتّصف بها جدّنا الأوّل (الكون)، الذي قالوا عنه: قد خلق نفسه من لاشيء، ولأنَّنا نعرف أنَّ حقيقة خلقنا ليست بأيدينا، إذن: فلا يمكن أن يكون الكون الذي نحن من ترابه خالقًا لنفسه.

وإذا سلمنا بنظريَّة الانفجار العظيم هي كما هي، فهل هناك من مشاهد لذلك الانفجار ساعة انفجاره، حتى يصفه لنا بهذه الصّفة؟ أم إنَّه قراءة أبهرت القرّاء من الفيزيائيين بما لم يكونوا له متوقّعين؟

وإذا تمسّك ذلك البعض من الفيزيائيين بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء؛ فهل يدلّ هذا الأمر على أنّ صفة الخلق الكوني تحدث مرّة واحدة ثمّ تنقطع؟ فإذا قبلوا بذلك؛ فكيف لهم بفرض الإثبات العلمي: (الصّفة الطبيعية جينات تورّث)؟

ولأنَّ الخلق صفة لخالقٍ، فالخالق لا بدَّ أن يكون أعظم من المخلوق؛ ولهذا فالمخلوق المدرك ينبهر بما هو عظيم كلّما اكتشفه، وبخاصّة إنْ لم يكن متوقّعًا.

ولذلك؛ فعلماء الفيزياء انبهروا بما اكتشفوا كونًا (طاقة، وحيويَّة، ومجرّات، ونجومًا، وكواكبًا، وتمدّدًا)، ممّا دعاهم إلى وصف ذلك المكتشف المبهر بالكون الخالق لنفسه من لاشيء.

ومع أنَّ بعض علماء الفيزياء يرى: (أن الكون خُلق من لا شيء، ولا إله له)، فإنَّ بعضًا آخر يرى: (أنّ وراء كلّ مخلوق خالق، ولا شيء خالق لنفسه)، ثمّ بعضًا ثالثًا يرى: (أنّ الكون خُلق من عدم). أمّا البعض الرّابع فيرى أنَّ هناك: (أكوانًا أخرى خُلقت إلى جانب الكون الذي نبحث في شأنه).

ولأنَّ علماء الفيزياء يفترضون وهم يفسّرون معلوماتهم بوجود أكثر من كون، فهل هذه الأكوان جميعها قد خَلقت نفسها من لاشيء، أم إنَّ وراء كلّ كونٍ خالق؟ أم إنَّ للأكوان خالقًا واحدًا؟

ولأنَّ القاعدة المنطقيَّة تقول: (الخالق لا مثيل له)؛ ذلك لأنَّه الخالق، إذن: فالإقرار بوجود أكثر من كون، وكلّ كون خالق لنفسه من لاشيء يعدّ إقرارًا بوجود أكثر من خالق، وهذه الحجّة تبطل مقولة: (الكون خلق نفسه)؛ لأنَّه لو خلق نفسه، لما كان له مثيل (كون آخر).

ولأنَّ الدلائل تشير إلى وجود أكوان أخرى؛ فكيف لنا باختراقها ونحن حتى الآن لا نستطيع اختراق حدود كوننا المتسارع في التمدّد؟

وإذا أجزنا ذلك؛ فهل هذه الأكوان هي من نتاج ذلك الانفجار العظيم (الانبهار) أم إنَّ لكلِّ كونٍ انفجاره؟

ولأنَّ طبيعة الانفجار مدمّرة للأشياء؛ فلماذا وُصف الكون بهذه الصّفة التدميريَّة التي لا تؤدّي إلى الخلق والبناء؟ وكيف يمكن لنا التسليم بهذه الصّفة التدميريَّة، وفي الوقت ذاته نسلّم بأنّ الكون خلق نفسه من لاشيء ولا خالق له؟

وإذا سلّمنا بأنَّ وراء هذا الكون تلك النّقطة الذّرية؛ فينبغي لنا التسليم بأنَّه لو لم تكن تلك الذّرة المتناهية في الصّغير ما كان الكون، وهذه الحجّة تبطل القول: (إنّ الكون خُلق من لاشيء) وتثبت أنّ الذي خلق تلك الذّرة المتناهية في الصّغر هو الذي خلقها على الانفجار الذي أخرج الكون منها، وبالتالي تبطل مقولة: (خلق الكون من غير خالق).

وإذا كان الكون قد خُلق من تلك الذّرة المتناهية في الصّغير، أو أنَّه خُلق من انفجارها؛ فالتساؤل: ومن الذي خلق تلك الذرة؟ ومن الذي جعلها على الانفجار؟

وبالتّالي؛ فإنْ لم نتحصّل على نتيجة ذات حُجّة، يصبح من الصّعب علينا التسليم بما سلّم به بعض الفيزيائيين: (أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء). ومن أجل البحث، فإذا سلّمنا بالانفجار الكوني؛ فهل ذلك الانفجار حدث في مكان وزمان، أم أنَّه حدث في غير مكانٍ ولا زمانٍ؟ وإن حدث في مكان وزمان، يظل الزّمان والمكان سابقين على وجوده، وإن قال قائل: إنَّه حدث في غير مكان ولا زمان؛ فالتساؤل: هل يمكن في غير مكانٍ وزمان أن يكون للانفجار صفة التمدّد والانتشار؟

وإذا قبلنا بلحظة الانفجار الكوني (الانبهار العظيم)؛ فهل حدث هذا الانفجار في مكان وزمان كما سبق وأن تساءلنا؟ أم إنَّ المكان والزّمان من مواليده؟ فإنْ تمّ الاستدلال بهما على ذلك الانفجار العظيم يصبح استيعابهما لتلك الذّرة الصّغيرة متجاوزا لأيّ نقاش. ولكن إن لم يتمّ الاستدلال بهما، يصبح الانفجار العظيم ساعة الولادة.

ولأنَّ أمر الخلق عظيم؛ فهناك من يؤمن: (أنَّ وراء الخلق خالقًا)، وفي المقابل هناك من يكفر بذلك، ويقول: (الكون خُلق من لاشيء)، وبين هذا وذاك هناك من يرى أنّ الكون: (خُلق من عدم)، والله قال: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[10].

فها نحن في مجادلة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُمكِّن من معرفة الكون، دون تعصّب بغير بيّنة؛ ممّا يجعل البعض يطلب تحديدًا لمفهوم العدم مع إظهار الحجّة المرسّخة لخلق الكون منه.

فالعدم مع أنَّه أثر، يثبت وجود شيء، فإنَّنا إن سلّمنا بفرضيَّة خلق الكون من العدم؛ فقد سلّمنا بوجود شيء سابق على وجود الكون، وبالتالي؛ يصبح الكون مخلوقًا من ذلك الأثر المتناهي انعدامًا. وإذا سلّمنا به أيضا، فلا يمكن التسليم بأنّ: (الكون خُلق من لاشيء)؛ فكيف لنا بقبول ذلك وبعض الفيزيائيين يفترض خلق الكون من العدم؟

ومع أنَّ العلماء والبحاث يحتكمون بالأدلة والحُجج الموضوعيَّة، فإنَّ في بعض الأحيان تتدخّل الأحكام الشخصيَّة مع بعض النتائج

[10] الكهف: 54.

العلميَّة، ومن ثمّ؛ ينبغي لنا التمييز بين التحليل العلمي الممكّن من نتائج موضوعيَّة، وتفسير النتائج الذي في كثير من الأحيان يتأثّر بوجهات النظر الشخصيَّة؛ فالتفسير لا تنقطع صلته عن رؤية المفسّر (وهنا تكمن العلّة) أمّا النتائج فمؤسّسة على حقائق وشواهد.

ولأنَّ العلماء يدركون حقيقة مفادها: (لا تحدث الأشياء إلّا بأسباب)؛ فالأسباب لا يمكن أن تكون منفصلة عنها لتدفعها تجاه تحقيق الأهداف.

وبناء على هذه القاعدة العلميَّة: هل عرف أولئك العلماء الفيزيائيون الأسباب التي دعت تلك الذّرة إلى الانفجار؛ لتكون من بعد انفجارها كونًا خالقًا لنفسه؟ وكيف لهم بهذا الحكم، وهم لا يعلمون الأسباب التي كانت من وراء خلقه؟ أي: هل يمكن أن تُحلّ مشكلة علميَّة، أو اجتماعيَّة، أو إنسانيَّة إذا لم يتمّ التعرّف على أسباب وجودها أو ظهورها؟

وهل يمكن لنا الأخذ بهذا الحكم (الكون خُلق من لاشيء) ونحن لم نعرف الأسباب التي كانت من وراء خلقه؟

أي: هل يمكن لأيِّ عالمٍ معرفةَ مشكلةٍ علميَّةٍ، وهو يجهل معرفة أسباب وجودها؟

كلّ هذه التساؤلات تحمل إجاباتها في أحشائها؛ فالذي خلق تلك الذّرة التي انفجرت كونا وحده يعلم الأسباب.

وذلك المنفجر لو لم يكون من وراء انفجاره أسبابًا ما انفجر، وبالتالي فإنَّ العقل على الرَّغم من الحيرة التي تلازمه بداية البحث العلمي، فإنَّه لا يقبل التسليم بحدوث أيّ شيء ما لم يكن المشيء شاء له ذلك.

وعليه: فإنَّ المنطق العلمي يقول: إذا سلّمت بوجود شيء قابل للانفجار؛ فلا بدّ أن تسلّم بوجود علل انفجاره وإن لم تعلمها.

وفي كلتا الحالتين؛ فإنْ أنكرت تلك العلل فإنَّ إنكارك لها لا يلغي وجودها، وإن سلّمت بها فإنّك قد سلّمت: (أنّ وراء كلّ علّه معلولًا، ووراء كلّ مخلوق خالقًا).

والمنطق العلمي يقول: (في الوقت الذي تعرف فيه شيئًا منفجرًا، تعرف فيه شيئًا آخر قد انتهى)؛ فوجود الكون بأسباب الانفجار كان نهاية لذلك المنفجر، فعلى سبيل المثال: القنبلة المنفجرة أوَّل ما تنتهي، تنهي وجودها ثمّ تؤثّر في محيطها تأثير مباشرًا؛ ولذلك فأيّ منفجر ما لم يكن له مكان للانفجار فلا يمكن له أن ينفجر، وهذه الحجّة تثبت وجود مكان لتلك الذّرة التي انفجرت، ولأنَّ تلك الذّرة قد انفجرت، قبل أن يُخلق الكون، إذن: فهي المزمّنة على الانفجار، ولأنَّها مزمّنة للانفجار، إذن: فالزّمن سابق على وجود الكون. ومن ثمّ فمن الذي خلقها؟ ومن الذي جعلها على الزّمن (لحظة الانفجار)؟

إنَّ بعض الفيزيائيين يعترف بحدوث الانفجار في الفراغ، وفي المقابل بعضهم الآخر يرى أنَّ الانفجار كان بالفراغ، ولم يكن فيه، وفي كلتا

الحالتين: حدث الانفجار، ولأنَه حدث فلا بدّ من وجود حيّز مهيئ لانفجاره؛ ليسمح له بالتمدّد.

وإذا أجزنا ذلك؛ فقد اعترفنا بأسبقيّة الزّمن الذي من دونه لا يمكن أن يكون الانفجار، ولكن وإن توافر المكان والزّمان؛ فلا انفجار إلّا بسبب، ولسببٍ.

ولأنَّ بعض الفيزيائيين يقرّ بخلق الكون من لاشيء؛ فأنَّهم يقرّون بنهايته لا محالة، ومن هنا أتساءل:

هل بقولهم هذا يقرّون أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء بغاية إنهائها، وكأنَّه لا شيء من وراء خلقه إلّا أن ينفجر ثانية؟

فإذا أقرّوا ذلك؛ فقد أقرّوا بعبثية خلق الكون: (كون بلا أسباب، ولا طموح، ولا غاية). ولأنّ بعض العلماء أقرّ بالكون خُلق من لاشيء) فهم بقرارهم هذا اعترفوا بأنَّه مخلوق (كونه كما قالوا خلق نفسه)، وبما أنَّه مخلوق؛ فما هو الغرض من خلقه؟ نعتقد أنَّه لا أحد يستطيع الادعاء بمعرفة غرض الكون، وبخاصّة أنَّ الغرض يسبقه هدفٌ وتلحقه غاية، وهذه لا يعرفها إلّا عليم، والكون بلا ذاكرة، فكيف له بذلك؟

وإذا سلّم البعض بخلق الكون من لاشيء، ولا خالق له؛ فهل خَلْقُ الكون مؤسّس على قوانين؟ أم إنَّه لا قوانين تحكمه؟

إذا قبلوا بخلقه على قوانين، فقد قبلوا بأسبقيَّة القوانين عليه، وإذا قبلوا بذلك، فلن يقبلوا بخلق القوانين لنفسها؛ وذلك لمعرفتهم أنّ القوانين

ليست مادّة، بل هي ضوابط للتوازن والاعتدال والانتظام والحركة والسّكون، فهي لا تكون إلّا من مدبّر أمر الخلق، والقاعدة تقول:

كلّ الخلائق خُلقت على قانون.

الكون من الخلائق.

إذا الكون خُلق على قانون.

ولأنَّ الكون خُلق على قانون. إذن: فمن الذي خلق القانون الذي تأسّس خلق الكون عليه؟

وإذا رجعنا إلى قول عالم الفيزياء روبرت جاسترو: "إنَّ البذرة التي تَشكَّل عنها كلّ ما في الكون، كانت قد زُرعت في تلك اللحظة الأولى، وكلّ مخلوق حي في الكون جاء للوجود نتيجة الأحداث التي تمّ تعيينها في لحظة الانفجار الكوني"[11]، وبالعودة إلى قول العالم جاسترو، نعرف أنّ تلك البذرة قد زُرعت في تلك اللحظة، ولكن بما أنَّه قد اعترف بزراعة تلك البذرة، إذن: فقد اعترف بوجود البذرة قبل زراعتها، ومن هنا أتساءل:

ـ من الذي أوجد البذرة، ومن أين أوجدها؟

ـ من الذي زرعها، وأين زرعها، ومتى زرعت؟

---

[11] Dinesh D'Souza, What's So Great about Christianity, (Regnery Publishing, Inc, 2007) p118.

. من الذي شاهدها بذرة قبل انفجارها؛ ليصفها لنا يقينًا بأنَّها بذرة؟

. ومن الذي يعلم الأسرار العظيمة لفك اللغز؟

أقول: القول السابق على كلّ قول: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[12]، والبديع هو السّابق على كلّ سابق، وهو الذي يعلم أسرار إبداعه؛ فيعلم ما لا نعلم: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[13].

إنَّ هذا القول الذي اقتبسناه جاء داعما لتساؤلاتنا؛ لأنَّه القول السّابق على ما جاء به الفيزيائيون من أقوال واستنتاجات، وبذلك لو قرأ الفيزيائيون قول الله تعالى لعرفوا عمّ يتسألون: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[14]، كلّ هذه الآيات نزلت قبل بلوغ علم الفيزياء معرفة نظريَّة الانفجار العظيم التي أبهرت الفيزيائيين بعظمة خلق الكون، حتى اعتقدوا أنَّ الكون خُلق من لاشيء، فهم لو اضطلعوا على قول الله، لعرفوا أنّ الكون مخلوق، وأنَّ وراء كلّ مخلوق خالقًا.

---

[12] البقرة: 117.

[13] الحج: 70.

[14] النبأ: 1-12.

وحتّى لا يأخذنا تحيّز بلا حُجّة، أتساءل:

أيّهما أسبق: التوراة والإنجيل والقرآن، أم نظريات النسبيَّة والجاذبيَّة والانفجار العظيم؟

فمن حيث الزّمن، الفارق كبير، ومن حيث الحُجج المنزّل أعظم، إذا؛ فلماذا لا يقرأ الفيزيائيون المنزّل، ثم يبحثون ويقارنون بموضوعيَّة ويكتبون ما يتوصّلون إليه من نتائج علميَّة، والتي لا شكّ أنَّها ستكون نتائج مبهرة عند اكتشافها: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[15]، السير هنا جاء بغاية الاستكشاف وزيادة المعرفة، أي: ابحثوا عما أعلمتكم به من غيب؛ حتى تعرفوا الأسرار في الأرض والسّماء، وتكتشفوا قوانينها، ومن ثمّ، تتيقّنوا الحقّ: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّه الْحَقُّ}[16].

ولذلك نزل قوله: (انظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، بدلالة التمعّن فيما تنظرون إليه من عجائب، والنّظر إلى العجائب يستوجب التفكير في الكيفيَّة التي بها خُلقت العجائب: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[17]، أي: يا بني آدم، لا تستوقفوا عقولكم عند المشاهد، بل مدّوا نظركم إلى الكيفيَّة التي عليها وبها خلقت الأشياء؛ فالنّظر إلى الإبل والسّماء والجبال والأرض ضرورة، لكن الأعظم من ذلك النّظر إلى الكيفيَّة

[15] العنكبوت: 20.

[16] الحج: 54.

[17] الغاشية: 17-18.

التي بها خُلقت الإبل، والكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء، والكيفيَّة التي بها نصبت الجبال، وسُطحت الأرض.

وهذه الآيات دعوة للتأمّل والنظر (أفلا ينظرون)، فلو نظر بنو آدم لعرفوا، ولو عرفوا لتدبّروا، ولأنَّهم لم ينظروا؛ فلن يتذكّروا ما يعظهم، ولن يتدبّروا ما يفيد أمرهم، ولن يفكّروا فيما يجب، وهذه من الغرائب والعجائب.

الانبهار العظيم:

عَرَفَ علماء الفيزياء نظريَّة الانفجار العظيم التي بها تفحَّصوا الكون من ذرة إلى انفجار على سرعة متزايدة في التمدّد، وفي توغُّلهم بحثًا وصلوا إلى نتيجة مفادها: لا خالق وراء ما خُلق، ولكن الطبيعة تخلق العجائب.

هذه النتيجة أصبحت بين أيدي البحاث تحت المراجعة والتقصّي الدّقيق بهدف معرفة نتائج تتجاوز الشكوك التي تحول بينها وبين إطلاق حكمها. ونحن إن انطلقنا من هذه النتيجة افتراضًا فلا بدّ أن نكون في حاجة لكشف معطياتها أمام الفرض البحثي: (إذا كان وراء كلّ بحث علمي باحث؛ فكيف لا يكون وراء كلّ مخلوق خالق)، أي: إذا كان البحث العلمي لا ينجز ولا يتحقّق إلّا بباحث، فكيف بإيجاد خَلقٍ بلا خالق؟

ومن هنا، وجب تقصّي عمليَّة الخلق، انطلاقًا من أنفسنا؛ لنعرف سُلالتنا، وممّا خُلقت، حتى نعرف أصل الكون الذي نحن جزء منه. ولأنّنا نرنو نحو نظريَّة خلق ونشوء وارتقاء من القرآن؛ فليس لنا بدّ إلّا الانطلاق

من مسلّمات علميّة؛ لنبرهن على هذا الفرض إثباتًا أو نفيًا. والمسلّمات العلميَّة التي لا خلاف عليها مع الفيزيائيين هي التي لا خلاف لهم فيها مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[18].

ولذا؛ فالفرض التساؤلي: (إذا كان وراء كلّ بحث علمي باحث؛ فكيف لا يكون وراء كلّ مخلوق خالق)، يستوجب كشف العلاقة بين متغيراته، وما جاء في الآيات السابقات، التي تثبت خلقنا وإنشاءنا، (ثمَ أنشأناه خلقًا آخر) أنَّه الخلق المتغيّر داخل سلالته، وليس المتبدّل عنها: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[19]

وبتتبع سلسلة خلق الإنسان فقد كان مُضغة قبل أن يكون عظامًا ولحمًا، وقبل أن يصبح خلقًا تامًّا في أحسن تقويم.

والمضغة هي نتاج اندماج الحيوان المنوي مع البويضة، اندماجًا يشكّل خلطة الدّم في مكون واحد يجمع بين الصّفات الوراثية للأب والأم.

ولسائل أن يسأل:

ومن أين جاءت هذه الصّفات؟

---

[18] المؤمنون: 12 . 14.

[19] التين: 4.

جاءت من ذلك التعلّق الذي تمّ بين النّطفة والبويضة، فلو لم يتمّ ما كانت المضغة؛ ولهذا فالتعلّق بين النّطفة والبويضة كوّن العلقة.

والعلقة جاءت من النّطفة الممناة في ذلك القرار المكين (المكان المناسب والمهيأ للحمل): {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى}[20].

وكذلك النّطفة جاءت من تلك السّلالة، التي خُلق الإنسان منها في أحسن تقويم، والإنسان هنا هو: المخلوق خلقًا (الإنسان الأوّل)؛ إذ لا سابق لأب ولا أم.

والإنسان الأوّل، هو: الإنس بنوعيه (الذّكر والأنثى) آدم وزوجه، وهو المخلوق الأوّل، وفقًا للقانون الزّوجي: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[21].

وعليه: فالخلق الأوّل خلق زوجي، سلالة من طين: (آدم وزوجه)، أمّا الخلق من بعده؛ فخلق تزاوجي من نطفة: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) والسلالة هنا تدلّ على التميّز والجودة والخصوصيّة التي خُلق عليها الإنسان الأوّل: (آدم وزوجه)، وهي السّلالة التي تمتدّ إلى نسله من بعده: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ}[22]، ومن هنا، يترسّخ مفهوم ودلالة خلق الإنسان في أحسن تقويم.

---

[20] القيامة: 37.

[21] الذاريات: 49.

[22] السجدة: 8.

فخلق الإنسان لم يتوقّف عند ذلك الطّين الذي منه سلالته، بل يمتدّ إلى الأرض التي منها طينته: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[23]. أي: لو لم تكن الأرض طينة خلقنا فيها، ما خُلقنا منها، ولا أنبتنا منها نباتًا.

وبما أنَّ عناصر تكويننا هي عناصر أرضيَّة، إذن: لا بدّ وأن يكون للأرض مصدر لعناصر تكوينها أيضًا؛ ولذلك من أين جاءت عناصر خلق الأرض؟

يقول الفيزيائيون: إنَّها من ذلك الانفجار العظيم للكون؛ فلو لم يكن الكون ما كانت وما كنّا.

أمَّا القول بخلق الكون نفسه من لاشيء، فهذا الأمر لا يُدرك إلّا من خارجه، وهو الأمر المستحيل؛ فنحن بنو آدم لا شكّ أنّنا نفكّر، ولكن تفكير عقولنا دائمًا في دائرة الممكن، ودائرة الممكن جزء متناهٍ في الصّغر داخل الكون، ولأنّ دائرة الممكن محاطة بالكون؛ فلا يمكن لها أن تدركه وفقًا للقاعدة المنطقيَّة: (المحاط لا يدرك المحيط).

ولو كان الكون خالقًا لنفسه، لكان كلّ مخلوق قادرًا على خلق نفسه، ولا وجود للتكاثر الزّوجي الذي به خُلقت المخلوقات وتكاثرت.

---

[23] نوح: 17.

وعليه:

إذا كانت الأرض هي التي فيها طينتنا التي نبتنا منها نباتًا، ثمّ أصبحت الأرض لنا مكانًا، إذن: فالأرض لو لم يكن لها مكان سابق عليها ما ظهرت للمشاهدة كما هي في فلكها تسبح، ووفقًا لهذه المعطية؛ فلا يمكن للكون أن يكون لو لم يكن له مكان يتمدّد فيه ويسبح؟

ومن ثمّ، أصبح بين أيدينا تساؤلٌ:

هل يمكن للكون أن يتمدّد إن لم يكن له مكانٌ يتمدّد فيه؟

ولأنّ للكون إثباتًا مستمرًّا في تمدّده وبسرعة هائلة، ألا يعني ذلك أنّ مكان تمدّده فسيح إلى النّهاية، أي: ألا يعني ذلك أنّ الكون بعظمته أصغر بكثير من عظمة المكان المتمدّد فيه؟

وإن تمّ اكتشاف ذلك، فإنّ المكتشفين سيدركون أنّ بداية الخلق بعيدة جدا، وبخاصّة إن اكتشفوا حيّزا أعظم وراء ذلك الحيّز الذي يتمدّد فيه الكون، وهذا الأمر يدعوهم إلى مزيد من التوغل؛ حتى يبلغوا معرفةً أنَّ الأشياء المخلوقة لا بدّ وأن تتولّد من بعضها البعض، وتتناسل من بعضها البعض بقوَّة خارجة عنها؛ انطلاقا من أنَّ (المخلوق لا يمكن أن يخلق نفسه) ومن ثم؛ فإنَّ تتبّع استمداد الشيء من الشيء المستمدّ منه، أو المخلوق من المخلوق منه يعدّ الطريق العلمي الممكّن من معرفة الخالق عن بيّنة وعلم تامّين.

إذن: فمتى ما بلغ العلماء هذه الحقيقة، بلغوا المعرفة التامّة: (أنَّ وراء كلّ مخلوق خالقًا)، وهي التي من بعدها يدركون أنَّ: (الخالق يرى ما

خلق والمخلوق لا يمكن أن يرى خالقه)؛ ولذلك فنحن بني آدم نرى المخلوقات الظاهرة للمشاهدة، ومن بعدها نرى ما نخلقه منها، نرى كلّ ما نصنعه بأيدينا وما نصنعه بأيدينا لا يمكن له أن يرانا؛ فهكذا نحن المخلوقين في هذه الحياة الدّنيا: (نرى ما خلقنا بأيدينا، ولا يمكن لنا رؤية خالقنا) فنحن ندرك بما أنَّنا مخلوقون؛ أنّضه لا بدّ أن يكون من ورائنا خالق أعظم منا.

ومن يدرك أنَّه مخلوق، وبإمكانه أن يخلق شيئًا ممّا خُلق؛ فهو بإمكانه أن يدرك أنَّه لم يكن الخالق الأوّل؛ فالأوّل لا بدّ أن يكون المبدئ، الذي لا تكون البداية به، بل البداية منه، ومن ثمّ فمن تكون البداية بيده، لا بدّ أن تكون النّهاية بيده، سواء أكانت نهاية الحياة، أم نهاية الموت: {إِنَّه هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}[24].

ولأنَّ علماء الفيزياء والفلك لم ينفكّوا عن البحث داخل المحيط الكوني؛ فجهودهم البحثية ستظل بين اكتشاف، وعجز، وتطوير، وتأكيد، وإبطال، وتصويب، وإضافة. ولأنَّهم كذلك، فهم لا يزالون في مرحلة العلم القليل، وسيظلون هكذا بأسباب مقدرتهم العقلية التي لا يمكنها تجاوز دائرة الممكن، وبذلك لن يدركوا العلم الواسع، الذي يعلمه من جعل سعة عقولهم محدودة، ولا إطلاق فيها: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[25].

[24] البروج: 13.

[25] الإسراء: 85.

ولذلك؛ فالمتعلّم أو طالب العلم علمه أقل من مؤتي العلم، ولأنَّ العلم يؤتى، فلا بدّ من مؤتٍ له، ومؤتي العلم لا بدّ أن يكون عليما، والعليم علمه يحيط كلّ شيء ولا يحوطه شيء.

التمدّد الكوني:

عرف علماء الفيزياء أنّ الكون يتمدّد بأسباب الانفجار العظيم، الذي حدث قبل أربعة عشر مليارًا من السّنين، ثمّ عرفوا أنّ هذه العمليَّة آخذة في التسارع، ويعزي العلماء هذا التزايد إلى المادّة المظلمة، وباستمرار التمدّد سيتحوّل الكون في النّهاية إلى جليد[26].

وبما أنَّ عمليَّة التمدّد الكوني آخذة في التّسارع، ألا يكون هذا التّسارع في اتجاه جاذبية مغرية للتمدّد؟ ثمّ، ألا يكون هذا التمدّد المتسارع لتمكين الكون من أكوان أخرى في علمٍ نجهله؟ أم إنَّ الكون يتمدّد متسارعا في جميع الاتجاهات انطلاقا من أنّ لكلّ بداية نهاية؟

ولأنّه لا تمدّد إلّا لغاية، إذن: فمن الذي يعلم تلك الغاية؟

يعلمها الذي يدركها قبل بلوغها؛ فهي لم تكن هدفًا مشاهدًا، بل هي ذلك المجرّد الذي يدرك ولا يشاهد، والغاية من التمدّد على مستوى الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يتمّ بلوغها بعد إنجاز الأهداف وتحقيق الأغراض.

---

[26] كولين رونان، الكون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1980م.

ولذا؛ فالغاية من التمدّد المطلق لا يعلمها إلا العليم المطلق؛ فمعرفة الغاية من تمدّد الكون متجاوزة لدائرة الممكن؛ فلا تدرك إلّا من خارجها (من قِبل من بيده العلم المطلق) الذي خلق ويخلق وسيخلق: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}[27] .

يفهم من هذه الآية: أنّ ما اكتشفه علماء الفيزياء من تمدّد كوني، لا مفاجئة فيه لمن يعلم أنّ صفة الخالق هي الخلق بلا انقطاع؛ فهو الذي خلق الكون (السّماء والأرض)، وهو الذي خلق الأكوان (السّماوات والأرضين)، وهو الذي خلق التمدّد الكوني بلا انقطاع: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) وهو الذي بيده نهاية الكون: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[28].

فعلماء الفلك والفيزياء وكذلك المؤمنون على الرَّغم من خلافهم على خَلقِ الكون، فإنّهم يتَفقون على أنّه لم يعدّ بعد بلوغ الغايات إلّا النّهاية، وبخاصّة الذين أطلقوا اسم: (The Dark Matter) أي: المادّة المعتمة، وهم يفترضون أنّ المادّة المعتمة والطّاقة المعتمة تشكّل ما بين 95% إلى 99% من كتلة الكون، وبالتالي؛ فالكون سيتمدّد إلى أن يصل إلى مرحلة يبدأ عندها بالانهيار حتى ينتهي متراجعا إلى تلك الذّرة، وهي الحالة التي كان عليها قبل حدوث الانفجار العظيم[29].

[27] الذاريات: 47.

[28] الأنبياء: 104.

[29] Universe 101: Big Bang Theory. NASA. Archived from the original on 14 May 2011.

ومن يقرأ نظريَّة الانفجار العظيم يجد نفسه في حيرة أيهما يقبل: (أنّ الكون خلق نفسه من لا شيء)، أم: (أنّ وراء الكون ذرة ومن ورائها خالقًا)؟

فإن قَبِل بأسبقية الذّرة على الانفجار الكوني؛ فقد قبل بوجود سابق على وجود الكون، أمَّا إذا قَبِل :(أنّ الكون خلق نفسه من لاشيء) فلا بدّ أن يقبل بانعدام علاقة الكون مع تلك الذرة.

وبما أنَّ الإجماع الفيزيائي يقرّ بأسبقيّة وجود الذّرة، ويقرّ بانفجارها كونًا، إذن: كيف للكون بخلق نفسه من لاشيء؟ أي: كيف للعقل أن يقبل أنَّ: (أصل الكون ذرة)، وفي الوقت ذاته يقبل أنَّ: (الكون خُلق من لاشيء)؟

ومع أنَّ الإجماع الفيزيائي قد أقرّ بأنّ: (أصل الكون ذرة)، لكنّه لا يزال يجهل أسرارها، ولأنَّه يجهل أسرارها؛ فقد قرّر قطع العلاقة معها؛ وذلك باتخاذه قرار: (خلق الكون من لاشيء).

ومع أنَّ علماء الفيزياء أقرّوا وجود تلك الذّرة التي تختلف عن الكون وجودا، فإنَّهم عاجزون عن وصفها، وعن التوقّف عندها؛ كونها أصبحت في خبر كان قبل أن يشاهدوها ذرة.

ولأنَّ المنطق العلمي يقول: (الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه)، إذن: فأين الكون من هذا المنطق؟ قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[30]. أي: حتى لا يضيع وقتكم حيرةً وغموضًا؛

---

[30] الأنعام: 73.

فالكون يا بني آدم قد خُلق خلقًا، وعليكم بمعرفة الخالق، وحتى لا تضيعوا في تيهٍ: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[31]. وقال: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[32] .

وأفاد علماء أمريكيون بأن العالم سينتهي بعد 22 مليار عام بسبب انفجار كوني يعرف بالتمزّق الكبير (Big Rip)؛ فهذه النظريّة الفيزيائية ترى أنَّ الكون سيتوسّع أكثر فأكثر إلى أن يتمزّق ويختفي كلّ ما فيه، ولا يبقى شيء. وهناك نظريّة تعرف بـ(التجمّد الكبير) ترى: إنَّ الكون سيتوسّع أكثر لدرجة انتهاء كلّ الغازات التي تسمح بتكوّن النّجوم، ممّا يؤدّي إلى توقّف الزّمن وهي النّهاية[33].

ولأنَّ لكلّ شيء أجلا، فلا بداية إلّا والنّهاية تلاحقها: {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}[34]؛ فالأجل المسمّى هو: زمن خلق السّماوات والأرض، وهذا يعني: أنّ الزّمن المسمّى له بداية ونهاية أي: إنَّ السّماوات والأرض كانت لها هيئات في علم الخلق قبل أن تخلق، وكذلك عمرها كان في علمه قبل أن تخلق، ثمَّ خُلقت، وستظل إلى النّهاية، وهذا يعني: أنّ معرفة أجلها عند الخالق سابق على خلقها، ممّا يجعل الأجل المسمّى هو الفترة الزّمنية المحدّدة للبقاء.

---

[31] يونس: 3.

[32] الأنبياء: 33.

[33] Krauss, L.M.A universe from nothing: why there is something rather than nothing. Simon and Schuster, 2012.

[34] الأحقاف: 3.

ولأنَّ الأجل هو: فترة من الزّمن، إذن: فلا بدّ أن يكون للأجل بداية معلومة، ونهاية معلومة، وهذا بالتمام ينطبق على الكون الذي هو الآخر له بداية ونهاية.

وبما أنَّ خالق السّماوات والأرض (الأكوان) قال: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[35]. إذن: فنهاية الكون لم تعدّ مجهولة، ولكن متي ستكون ساعة النّهاية؟ {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[36] .

وبما أنَّ للكون بداية ونهاية، إذن: فلا يمكن أن يكون الكون خارج الزّمن.

ولذا؛ فمن يعلم الزّمن السّابق للخلق، لا شكّ أنَّه العليم بأجله اللّاحق (النّهاية)، وهذه طبيعة الخلق: (حياة، موت، إحياء)؛ ذلك لأنّ الحياة الدّنيا بعظمتها لا تزيد عن كونها دُنيا، والدّنيا في مقابل العليا (الآخرة) ولا تقارن، ولأنّهما الحياتان فالنّهاية تكون بينهما شاهدا: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[37] . تحمل هذه الآية مفهوما ودلالة تساؤلية: (هل هناك من بدأ الخلق منكم أيّها الخلائق)؟ ولأنَّه لا إجابة (لا حجّة) قال: (ثمّ يعيده) بمعنى: إذا لم يكن من لا يسلّم بذلك

---

[35] الأنبياء: 104.

[36] الأحزاب: 63.

[37] الروم: 27.

ولا يؤمن، إذن: فمن الذي خلق الموت الذي يميت الأحياء في هذه الدّنيا؟

ولأنَّه لا إجابة، والخلق ليس بأيديكم، والموت ليس بأيديكم، فلماذا الاستغراب من بعث حياة ثانية؟ وأيّهما أهون: بداية الخلق من لا شيء، أم خلقه من شيء أنتم ستكونون من رفاقه؟

هكذا هو الوجود بداية، ثمّ الحياة، ثمّ الموت، وهكذا ستظلّ الحياة من البداية إلى النّهاية حتى ينتهي الكون الذي نحن جزء منه وبصدد التعرّف عليه، ومن ثمّ، فإنَّ الحياة الآخرة ستكون بانكماش كوني، أو انفجار أكثر عظمة من الانفجار الأوّل، أو رتق عظيم.

ولذلك، إذا كان الانفجار العظيم أو الانفتاق العظيم لكوننا بداية الوجود الحي: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[38]، فسيكون الانفجار العظيم نهايته، وبداية حياة أعظم: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[39].

ومن كلّ ما تقدّم، نلاحظ أنَّ الفيزيائيين وعلماء الفلك مثلما عرفوا أنّ للكون بداية، عرفوا أنَّ للكون نهاية: {إنَّه يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[40]، ومع أنّ الإجابة قرآن أُنزلت آياته سابقة على تفسيراتهم للكون، فإنَّهم بحثوا فعرفوا، وهذه معرفة واعية، غير أنّ الإساءة للمعرفة الواعية، أنَّهم لم

[38] الأنبياء: 30.

[39] العنكبوت: 20.

[40] يونس: 4.

يعوا بعد أنَّه لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}[41].

ولكن إن سلّم البعض: (أنّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له)؛ فكيف خَلق الكون نفسه؟ وممّ خلقها؟

وكما يقولون: المعنى في بطن الشّاعر، فكذلك أقول: الإجابة على السؤال: كيف خَلق الكون نفسه من لاشيء؟ هي الإجابة التي لا يعلمها إلّا من خلق نفسه إن كان قد خلقها، ولكن إن لم يجب خالق نفسه؛ فمن سيكون الأولى بالإجابة؟ أم نكتفي بإجابة العالم الفيزيائي لورنس كراوس التي لا تخضع للقياس ولا التجريب، وبخاصّة أنَّه يعترف بغموض تلك المادّة والطّاقة المعتمة التي لا زالت بالنِّسبة له مجهولة وهي تشكل 99% تقريبا من كتلة الكون؟

أم يجب ألا نغفل عن قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}[42].

أمّا ممّ خُلق الكون؟ فيقول العالم لورنس: إنَّه خُلق من لاشيء، ولا خالق له.

ولكن بما أنَّه قال: (خُلق الكون من لاشيء) إذن: فحتى وإن خُلق افتراضا من لا شيء، فهو المخلوق. وإذا سلمنا بأنّ الكون خُلق من لا شيء؛ فهل يحقّ لنا أن نقول: الكون لاشيء؟

[41] الأنعام: 1.

[42] الأعراف: 54.

وإذا كان اللاشيء ضرورة لخلق الكون، ألا يكون ضرورة دائمة لخلق الأكوان؟

وهل الكون مادّة وطاقة غير المادّة والطّاقة التي نعلمها؟ أم هكذا هي الإجابة كون من لاشيء. وإذا أخذنا بهذه الإجابة افتراضا؛ فالسؤال:

ومن الذي خلق اللاشيء الذي خلق الكون نفسه منه؟ وفي المقابل إذا كانت مادّة خلق الكون مستقلة عنه؛ فكيف كان كونا من دونها؟ أي: عندما يقال: الكون خلق نفسه من لاشيء، يفهم من هذا القول: كأنّ هناك شيئين: مادة صالحة لخلق الكون، وهذا شيء، وأنَّ هناك مقدرة خلقية، وهذا شيء آخر، ولكن بما أنّ هناك مقدرة ومادّة صالحة للخلق، وكلاهما مستقل عن الآخر، ألا يكون هذا دليل كافٍ على وجود خالق يسبق خلقهما؟ {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[43].

وعلى الرَّغم من مشادّات وملاحظات علماء الفيزياء، وحكمهم على أنّ الكون خلق نفسه من لاشيء، فإنَّهم في حقيقة الأمر أصدروا هذا الحكم وهم في قلب الكون وليس من خارجه، وهذا بالتمام مثل: الكائن الذي لا يعيش إلَّا في وسط التراب ولم يخرج لحظة منه؛ فكيف له بوصف الأرض وهو لم يرها مطلقا؟

وتحضرني في ذلك قصّة ذلك الكتكوت الذي في بطن البيضة قبل أن تفقِسَ ويخرج، حيث، احتضنت الدّجاجة بيضها بالدّفء؛ لتغرس في نفوس فراخها حنان الأمومة الذي يملؤها من احتضان أمّها لها في الزّمن

[43] المعارج: 41.

الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدّجاجة الحاضنة بأنّ غدا ينتظرهم بخيرات كثيرة، وستتنقل الكتاكيت بقوائمها في البستان تحت ظلال الأشجار نهارا وتنام على أغصانها ليلًا، فسأل أحد الكتاكيت أمّه: هل هناك كون أوسع وأفضل من الكون الذي نحن نعيش فيه؟

فأجابت: نعم.

قال: وما هو؟

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى، وفي وسط الحظائر والبساتين تقدّم لكم الخدمة من أيدي البشر المفضّلين عليكم في الخلق.

إنَّه من الصّعب التصديق يا أمّي أنَّ المفضّلين علينا هم الذين سيقدّمون لنا الخدمة.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع، والعقلاء فيه هم الذين يوفّرون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء؟

ولكن يصعب علينا التصديق بما أنَّنا لا نراك وإياهم.

إنّكم سترون غدًا بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشّمس والقمر والنّجوم؛ لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويًّا ومن يمشي مُكبًّا على

وجهه، وستميّزون بين الطّيور والزّاحف كما تميّزون بين اليابسة والماء، بعدها ستعرفون أنّ ما قلته لكم هو الحقّ.

نحن لا نصدّق ما تقولين، ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدّعين بأنَّه أوسع من كوننا الذي يملؤنا استقرارًا كما تملؤنا الرّاحة والطمأنينة فيه.

أنتم وكونكم الذي تعتقدون باتساعه كلّكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لم أشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا الثّعلب؟

عدوي وعدوكم.

بما أنَّ الأمر هكذا، إذن: يبدو أنّكِ مصرّة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي، ولكن عليكم أن تعرفوا أنَّ لكلّ بداية نهاية، حياتكم داخل البيض لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكلّ أسباب، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا، نحن لن نخرج حتى لا نكون تحت رحمة الثّعالب، وتكون لنا النّهاية، ونحن على يقين أنَّه لا يمكن أنّ يوجد كون أوسع وأفضل من الكون الذي نعيش فيه.

سيأتي غدًا، وخروجكم سيأتي إلَّا إذا وقعت (لن).

وما هو سرّ (لن) هذه؟

أن تموتوا داخل البيض، أو أنَّ غدًا لن يأتي عليّ وعليكم، أو يحدث عالم الغيب أمرًا.

وفي الفجر صاح الدّيك كعادته؛ فاستمعت الكتاكيت في كونها إلى صوته؛ فتساءلت:

وما هذا الصّوت المدوي يا أمّنا؟

صوت أبيكم، يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلى الحياة العامّة؛ ليراكم بأمِّ عينيه تأكلون الحبَّ، وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو، وسأفرح أنا مثله.

إنَّه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من الكون الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بالقوَّة لا بالإرادة.

سنصرخ ونبكي.

الصّراخ والبكاء لا يوقفان قدوم المستقبل، وصراخكم هذا سيكون سبب تكسير البيض الذي يخرجكم من قلب كونكم إلى كوننا.

صراخ... صراخ.... يكسّر البيض من شدّة الصّراخ، ما هذا النّور؟

وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذا الليل الطويل؟ ومن ذا الذي يقدّم لنا الخدمة، ويسهر على راحتنا؟

صدقتي يا أمّنا، صدّقنا، ولكن أين الغداء؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن، كيف يؤخذ؟

افعلوا مثل ما أفعل، اضربوا مناقيركم في الأرض؛ فأنا لا أرضع.

صدّقي يا أمّنا، لا أحد منّا كان يصدّق أنَّه يوجد كون أوسع من الكون الذي كنّا نعتقد أنَّه الكون الواسع.

انظروا إلى أعلى.

وما تلك يا أمّنا؟

الشّمس.

هل هي كون آخر، مثل هذا الكون الذي نحن عليه؟

لا. بل، الشّمس جزء يسير في هذا الكون، وإذا ما قُورن حجمها بأحجامكم عندما كنتم وسط أكوانكم البيضاء لظهرت في كونها أصغر منكم بكثير.

يا إلهي، كنّا نعتقد لا كون إلَّا ذلك الكون، واليوم الأكوان تتعدّد، ولكلّ بداية نهاية.

ومع إنّكم كتاكيت وقد سلّمتم بتعدّد الأكوان، وأنَّ لكلّ بداية نهاية، فلا تستغربوا إنْ قلت لكم: إنَّ من بين من يقدِّم لكم الغذاء والرّعاية لا يزال في حيرة من أمره، وأمر الكون، وأمر البداية والنّهاية.

يا ليتهم كانوا معنا في تلك الأكوان البيضاء، قبل أن نخرج منها فراخًا؛ فلو كانوا معنا، لعرفوا أنّ اتساع هذا الكون، سيكون أصغر بكثير من الكون الذي سيخرجون إليه بالقوّة، ولن ينفعهم البكاء؛ فالبكاء لن يكون منقذًا.

وما هذه الظلمة المعتمة التي حلّت بنا؟

إنَّه الليل، خِلفة النّهار.

ومن أين جاء هذا الليل يا أمّنا؟

نحن نقول: جاء من الخالق، وهم يقولون: جاء من تلك المادّة المظلمة الغالبة على مكونات الكون.

وما الفرق بيننا: (هم، ونحن)؟

الفرق يا أبنائي: أنَّهم يثقون في عقولهم؛ فكانوا أكثر شيئًا جدلًا، أمّا نحن فنثق في قلوبنا فكنّا (مسلّمين طائعين)؛ ولذلك نحن نسبّح للخالق اليوم كله، وهم لا يسبحونه إلّا قليلًا: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}[44].

إذن: هم حطب جهنّم إلّا المصلّين المسبّحين: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ}[45].

[44] الإسراء: 44.

[45] النور: 41.

وعليه: ألا يكون تمدّد الشّيء واللاشيء داخل الكون هو مثل تمدّد الكتكوت في البيضة حتى تنكسر، أم إنَّ تمدّد الكون لا يكون سببًا في كسر غلافه؟

وبما أنَّ الكون يتمدّد متسارعًا، فلا بدّ أن تكون الحياة مهدّدة بالفناء، ومتى ما استقرّ الكون على التوازن الحركي، اعتدل واستقرّ على البقاء، وبالتالي سيكون هذا الاستقرار على حساب نهاية ما هو كائن؛ فالخالق الذي خلق الحياة الدّنيا على التمدّد يعلم أنّ هذا التمدّد ليس أمامه إلّا النّهاية، ممّا يجعل بين أيدينا نتيجة مفادها: (إنَّ البقاء هو القاعدة، أمّا الفناء فهو الاستثناء).

ولأنَّ الكون بما فيه سينتهي لا محالة، إذن: مهما طال زمن البقاء؛ فلا بدّ من النّهاية، والنّهاية ستكون لحظة توقّف الكون عن التمدّد، وحينها يصبح: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[46]. بمعنى: أنّ الفناء سيلحق المخلوق، ولا يلحق الخالق: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}[47]، ويبقى وجْهُ رَبكَ (هو كما هو) الخلّاق، الذي سيبعث خلقه كما يبعث كونه.

ولأنَّ صفة الخالق (الخلق)؛ فالخالق: (خلق، ويخلق، وسيخلق)، إنَّه: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[48]؛ ولذلك فخلقه يتعدّد ويتنوّع ويتمدّد إلى النّهاية التي هي من مشيئته، وهذا ما وقف عليه علماء الفلك والفيزياء

---

[46] القصص: 88.

[47] الرحمن: 26 – 27.

[48] البقرة: 117.

من خلال نظريَّة الانفجار العظيم التي تؤكّد أنَّ الكون في حالة تمدّد متسارعة تؤدّي بالضّرورة للانكماش والنّهاية.

خلق الأكوان:

خُلق الكون المتسارع في تمدّده، على قوَّة الثنائيَّة الموجبة والسَّالبة، فكان تمدّده المتسارع معتدلًا في كلّ الاتجاهات على الرَّغم من القوَّة والتضاد.

ولأنّ الكون خُلق على الثنائيَّة، إذن: فقد خُلق للتكاثر المشاهد والملاحظ، ولكن كيف يُخلق الكون أحاديا والثنائية تملأ أحشاءه؟

وفقًا للمنطق السّلالي، هذه الزّوجية تشير إلى عدم خلقه وحيدًا، ومن هنا، بدأ علماء الفيزياء يطرحون فروضهم وتساؤلاتهم العلميَّة لإثبات ذلك أو نفيه.

وعلى ضوء تلك الفروض والتساؤلات عثر مجموعة من علماء الفيزياء الأمريكان على تفسير مناسب لتلك النقطة المعتمة المثيرة للدّهشة؛ فحسب هؤلاء العلماء أنّ هذه البقعة عبارة عن بصمة كون آخر تضغط على جدار عالمنا. ثمّ استنتجوا وجود الأكوان المتعدّدة والمختلفة والمتوازية. ووفقًا لنظريَّة الأكوان المتعدّدة، فكوننا يشبه فقاعة بجانب أكوان موازية شبيهة.

وعلى نقيض نظريَّة العوالم المتعدّدة، نظريَّة الأوتار التي تفترض أنّ هذه الأكوان يمكنها أن تكون على اتصال مع بعضها البعض، وكذلك النظريَّة تقول: إنَّ الجاذبيَّة يمكنها التدفق بين هذه الأكوان المتوازية،

وحينما تتفاعل هذه الأكوان؛ فإنَّه ينشأ انفجار كبير مثل الذي خلق كوننا[49].

هذه المعطيات البحثيَّة ترسّخ تلك الحقائق التي أُنزلت قرآنا: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[50]؛ فلو لم يقل الله: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)، لاتّهم المؤمنون هؤلاء الفيزيائيين بالكفر أو الشّرك، ولأنَّ قول الله سابق لاكتشافهم، فلا استغراب لما جاءوا به من اكتشاف، أي: لو لم تكن السّماوات (الأكوان) مخلوقة لما اكتشفوها، وهكذا، دائمًا بما أنّنا نكتشف؛ فإنّنا نعترف بأسبقية الخلق المكتشف على اكتشافه.

فسبع سماوات طباقًا، تعني: سبعة أكوان فوق بعضها البعض: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[51]، وسبعة أكوان (في كلّ كون أرض وسماء) تملأها النّجوم والمجرّات والطّاقة؛ أكوان منبسطة مثل انبساط كوننا الذي إن تماس معها حدث الانفجار وتكون النّهاية: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[52].

---

[49] Michio kaku, parallel Worlds: A Journey Through Creation, Higher Dimensions, and the Future of the cosmos, Double Day ,2004

[50] نوح: 15.

[51] الطلاق: 12.

[52] الروم: 11.

التمدّدُ المُمكِن والمُطلق:

التمدّد سواء أكان ممكنًا أم مطلقًا، هو نتاج حركة مندفعة بقوّة طاردة، أو قوّة جاذبة، ولكلّ بداية نهاية، غير أنَّ التمدّد وفقًا لدائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، لا يكون إلّا وفق القوّة المحدودة.

أمَّا التمدّد المطلق؛ فهو بيد الخالق، الذي بيده الإرادة المطلقة، وهذا التمدّد لا مستحيل أمامه، بل كلّ شيء ممكن.

أمَّا الممكن في دائرة النّسبيّة؛ فمنه المتوقَّع الذي: (بحدوثه لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب). ومنه غير المتوقَّع الذي كلّما وقع أو حدث، وُضِعت عليه علامة التعجّب، والاستغراب.

ولذا؛ فالمطلق دائمًا يتجاوز مدركات عقولنا، ومدى فهمنا، وطاقتنا واستعداداتنا؛ فنحن وما لنا من عقول محاطون بالكون المتّسع، ومن ثم؛ فلا يمكن لنا الإحاطة بمحيط يحيطنا، ولكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يمكننا معرفة ما يجري في كوننا، أمَّا ما يجري خارجه فلا نعلمه، ولا نحوطه؛ ذلك لأنَّ ما نحوطه نستوعبه، وما يحوطنا يستوعبنا، وفي هذا الأمر يقول المنطق العلمي: (المحيط يستوعب المحاط، والمحاط لا يستوعب المحيط حتى وإن أدركه معرفة).

ولأنَّ الخالق يحوط المخلوق؛ فالمخلوق لا بدّ أن يكون قاصرًا أمام محيطه؛ ولذلك فالمحاط دائمًا لن يكون خارج الإحاطة التي لا منفذ لها، ولا هروب منها إلّا التسليم؛ فعلى سبيل المثال: إذا سلّمنا أنَّ الكون: (خلق نفسه من لاشيء) فنجد أنفسنا كمن يصف سيول الأودية من

غير أودية، ولكن إنْ سلم أحد بذلك؛ فأين خلق الكون نفسه من لا شيء؟ ومن خلق له مكان خلقه لنفسه؟؛ ولهذا ضربنا مثل السيول التي تجري في الوادي، بمعنى: هل مجرى الوادي أوجد نفسه؟ أم أنّ المياه المندفعة هي التي أوجدته؟ ولهذا؛ كيف يمكن للكون أن يكون، لو لم يكن له محيط؟ وكيف يمكن أن تجري مياه الوادي المندفعة، لو لم يكن لها مجرى يحوطها؟

وبتحليل مضمون: (الكون خلق نفسه من لاشيء) يُفهم أنَّه المخلوق، حتى وإن خلق نفسه كما يقولون؛ لأنَّ القاعدة المنطقيَّة تقول: (الخالق أفضل من المخلوق) إذن: فالكون أفضل مِمّن؟

وكذلك، يُفهم من قولهم: (الكون خلق نفسه من لاشيء) بمعنى، وكأنّك تقول: (الكون خلق الكون)، وفي هذه الحالة كمن يقول: الماء خلق الماء، والطّائرة خلقت الطّائرة، والأرض خلقت الأرض، ولكن كيف للماء أن يخلق الماء، وكيف للأرض أن تخلق الأرض؟ ولذلك فالخالق يخلق ما دونه، ولا ينسخ نفسه.

وعليه: مهما تكررت التساؤلات: (من خَلق الخالق؟) فدائمًا: (الخالق يَخلق ولا يُخلق).

ولأنَّ صفة الكمال صفة الخالق، وصفة النقص صفة المخلوق؛ إذن: فكيف يقبل بعض العلماء الفيزيائيين بخلق الكون (القاصر) لنفسه من لاشيء؟

ولذا؛ فتمدّد الممكن بالنّسبة للمخلوق هو غير المستحيل وإن صَعب تحقيقه على البعض، أمَّا تمدّد الممكن بالنّسبة للخالق؛ فهو الذي لا يتجاوز أمره: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[53].

ولأنَّ كلّ شيء ممكن بالقوّة المطلقة؛ إذن: فالممكن بالنّسبة إلى الخالق هو السّابق على كينونة خلق ما يشاء، ومن هنا؛ فالممكن هو: انسجام القرار المطلق مع الإرادة المطلقة.

الانكماش الكوني:

مع أنَّ بعض علماء الفيزياء يرى أنَّ: (الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له)، فأنَّهم قالوا: سينتهي الكون عائدًا إلى تلك الذّرة التي انفجرت، وفي المقابل هناك من يرى: (أنَّ الكون أزلي الوجود)؛ حيث لا بداية له، ولا نهاية.

ولكن إذا سلّمنا افتراضًا أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء، فلا بدّ أن نسلّم ببداية خلقه لنفسه؛ والتسليم بخلقه نفسه من غير شيء، يستوجب التسليم بوجود مدة سابقة على خلقه، وهذا يعني: أنَّ الكون لم يكن مخلوقًا من قبل، ولكنَّه أصبح مخلوقًا بعد أن خلق نفسه.

وإذا أقررنا بذلك؛ فإنَّنا نقرُّ بوجود سابق على وجود الكون، ولكن إذا نفينا؛ فعلى من ينفي إعطاء الدّليل.

---

[53] يس: 82.

أمّا نحن فدليلنا، قولهم: (إنَّ الكون قد خلق نفسه)، وهذا القول يكفي لإثبات خلق الكون في الزّمان والمكان، أي: لو لم يكن الزّمان والمكان ما استطاع خلق نفسه.

وبما أنَّه خلق نفسه، إذن: فهو المخلوق خلقًا، وهذه تتعارض مع القاعدة المنطقيَّة: (الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلقه أحد) فالخالق يَخلق ولا يُخلق.

وإذا قبل البعض بخلق الكون لنفسه من لاشيء، فَلِمَ لا يخلق غيره، وهذا أيسر من الخلق النفسي؟ ولكن كونه يوصف بخالق نفسه، ولا يخلق ذبابة؛ فهل هذا بخالقٍ؟

ومع أنَّ معظم علماء الفيزياء، والفلك يقرّون بنهاية الكون، فإنَّهم لم يقدّموا حُجَّة تحدّد الزّمان والكيفيَّة التي سينتهي بها الكون، أي: أنَّهم لم يقدّموا حُجّة والشّك لا يلتصق فيها. وفي المقابل الحُجة تقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}[54].

وعليه: سواء كما يعتقد البعض بخلق الكون من لاشيء، أم كما نعتقد بأنَّ وراءه خالق؛ فنحن وإن لم نتّفق على الخالق؛ فإنَّنا نقرّ بخلق الكون، والإقرار بخلق الكون هو في ذاته دليل يثبت أنَّ للكون بداية، ولأنَّ قاعدة المنطق العلمي تقول: (لكلّ بداية نهاية)، إذن: فلا بدّ من

[54] الأعراف: 187.

نهاية تطوي صفحات الكون: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[55].

ولأنَّ نظريَّة الانفجار العظيم (Big Bang) تتمركز على أنَّ الكون كان في حالة حرارة شديدة الكثافة فتمدّد، ثمّ بدأ يبرد بما يكفي لتكوين جسيمات كالبروتونات، والنيترونات، والإلكترونات، وأنَّ سرعة تمدّد الكون ستنخفض تدريجيًّا بمرور الزّمن، وتتغلّب قوى الجاذبيَّة المتبادلة بين مكونات الكون على القوى الطاردة للمادّة الكونيَّة، وتعمل على جذبها إلى الداخل لتبدأ عمليَّة انكماش الكون، حتى يعود كما بدأ نواة كونيَّة قد تنفجر من جديد[56]: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[57].

ومن هنا، أقول: بما أنَّ الكون نتاج ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة، التي لا يزال انفجارها في حالة تمدّد إلى أن يبرد وينكمش إلى حالته الأولى، إذن: فتلك الذّرة التي انفجرت هي: شيء في ذاته، ولأنَّها الذّرة المنفجرة بذلك المعتم (اللاشيء)؛ فكيف لنا بوصفها شيئًا، وفي الوقت ذاته وصف ذلك المعتم الذي يملؤها بأنّه (اللاشيء).

إنَّ هذه النتيجة تؤدّي بنا إلى استبدال تلك الفريَّضة القائلة: (إنَّ الشيء يستمدّ من لاشيء)، بالفرضيَّة البديلة: (إنَّ الشيء يستمدّ من

---

[55] الأنبياء: 104.

[56] Universe. Will J. Percival el al. in Monthly Notices of the Royal Astronomical Society, Vol. 327, No .4, pages 1297-1306; November 2001

[57] الروم: 11.

الشيء)، ولمعرقة قوانين استمداد الشيء من الشيء علينا أن نميّز بين الخلق والنّشوء؛ حتى نتبيّن العلاقة بينهما، وهذا ما سيأتي لاحقًا.

وتقول نظريّة الانفجار العظيم (Big Bang): إنَّ الكون نشأ من كتلة واحدة، ثمَّ انفجرت، وتباعدت أجزاؤها وتناثرت، ثمَّ بدأت العناصر تتشكّل، فتشكلت النّجوم والمجرَّات والكواكب؛ حتى وصل الكون إلى ما نراه اليوم متمدّدًا ومتسارعًا.

وعليه: فإنَّ بحوث وآراء علماء الفيزياء لا تزال متباينة بين كون وأكوان، وبين تمدّد وانكماش؛ فهم لا يزالون في حيرة، وبالتّالي لا يمكن أخذ أحكامهم بالمطلق، بل ينبغي أخذها وفقًا لدائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فألبرت أينشتاين يرى أنَّ الكون يمرُّ في دورات، وبعد تمدّده سيعود للانكماش حتى يصطدم مع نفسه محدثًا تمدّدًا آخر.

فنظريّة الانكماش التي أخد صداها في فترة من الزّمن، أصبح شأنها يقل بعد اكتشاف تمدّد الكون في جميع الاتجاهات بقوَّة متسارعة، ومع ذلك يتمّ الاتفاق معها من حيث: إنَّ لكل بداية نهاية، ولكن كيفيَّة النّهاية الكونيَّة التي اختلف الفيزيائيون على زمنها وكيفيتها، ستظل غيبيَّة، والأهم من ذلك أنَّ الفيزيائيين أصبحوا متيقّنين بنهاية الكون وتجدّده: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[58]؛ وقال: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}[59]؛ فهذه الآية تؤكّد أنَّ النّجوم لن تدوم إلى الأبد، بل سينفد وقودها، وتنخفض شدّة إضاءتها تدريجيًا، وتنكمش حتى تنطمس

[58] الأنبياء: 104.

[59] المرسلات: 8- 9.

كلّيًّا: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ}[60]، وعند لحظة النّهاية؛ فلا شمس ولا نجوم: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[61].

إذن: بما أنَّ لكلّ بداية نهاية، فلا بدّ أن تطوى صفحة ذلك التمدّد الكوني كما تطوى الصّحف بعد انبساطها: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[62]، وهذا الطي هو عودة إلى الأصل، كعَود الشّجرة إلى النّواة التي كانت تكمن فيها؛ لأنَّ كلّ شجرة منتهية، ولكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كلّ ما نبت منها؟ في عالم الوجود الحي ستنتهي كلّ الأشجار الموجودة على قيد الحياة، وحسب أعمارها، وفي المقابل تنمو أشّجار أخرى منكمشة في نواها، ولكن عندما ينتهي الكون ستنتهي كلّ الأشجار كما ينتهي كلّ شيء فيه.

ولهذا؛ لا تمدّد إلّا من انكماش، ولا انكماش إلّا لانبساط وتمدّد؛ فعلى سبيل المثال: النّهار لا يمكن أن يتمدّد إلّا إذا انكمش الليل، وكذلك الليل لا يتمدّد إلّا إذا انكمش النّهار، وقوّة انبساط اليد لا يمكن أن تتمّ إلّا إذا انتهت قوّة انكماشها: {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ}[63].

[60] التكاثر: 1-2

[61] غافر: 16.

[62] الأنبياء: 104.

[63] البقرة: 245.

ومع أنَّ صعوبةً ترافق البحاث في أثناء رحلتهم البحثيَّة في أعماق الكون وتمدّده، لكن الأصعب بالنّسبة لهم هو: معرفة بداية الكون ونهايته بدقة.

ومن هنا، أتساءل: ألا يكون افتراض البحاث أنَّهم سيتمكّنون من معرفة بداية خلق الكون، ونهايته هو افتراض مؤدّاه الوقوف عند لحظة الخلق الكوني، أو معرفة الزّمن القبلي لخلقه؟ وفي المقابل ألا يكون هذا الافتراض في اتجاه معرفة نهاية الكون سيؤدّي بهم إلى معرفة ما بعده؟

في كلتا الحالتين: الأمر مستحيل، ومع أنَّه مستحيل فإن أخذنا بذلك افتراضًا، ألا يكون فرضهم: (معرفة بداية ونهاية خلق الكون) يحمل في مضمونه اعترافًا أنَّ الكون لم يخلق نفسه؛ بمعنى: لو كان خالقًا لنفسه؛ فلن يجدوا له بداية، وإن وجدوها يجدوا ما هو سابق على خلقه، أو من هو وراء خلقه، وهكذا إن عرفوا النّهاية الكونيَّة فإنَّهم سيعرفون ما يحيط الكون أو من يحوطه.

وإلى جانب ذلك فإنْ عرفوا متى خُلق الكون، ومتى سينتهي، فهل سيعرفون الكيفيَّة التي بها أو عليها خُلق الكون، والتي بها أو عليها سينتهي؟

نقول: فإنْ رأى بعض الخَلق أنَّ ذلك مستحيلًا، فبعضهم: قد يراه ممكنًا؛ ممّا يجعل الجدل سجالًا بين بعض العلماء، حتى يتبيّن الجميع حقيقة الإجابة الصّعبة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}[64].

ومن ثمَّ؛ فإنَّ أمر ساعة البداية والنّهاية الكونيَّة لا يعلمها إلّا المحيط بأمر البداية الخلقية، وأمر النّهاية الوجوديَّة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا}[65].

وبناء على ما تقدَّم: فهناك من يرى نهاية الكون تجمّدًا، وهناك من يرى نهايته منفجرًا، وهناك من يرى نهايته منكمشًا، وآخرون لا يرون للكون نهاية.

ونحن نقول: كل متمدّد لا بدّ وأن ينكمش سواء أكان ماديًّا، أم فكريًّا؛ فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول، ومخفيّة في الصدور: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[66]، ثم تتمدّد تلك الأفكار من خلال الاتصال، بالدّعوة والتنظير، والحوار والجدل؛ فالأفكار تتمدّد وتنتشر متى ما امتلكت قوّة الحجّة، ثمّ تعود إلى الانكماش مثل الكون عندما تفقد حجتها، وهكذا لكلِّ بداية نهاية.

---

[64] الأعراف: 187.

[65] النازعات 42 – 44

[66] غافر 19.

خلق اللاشيء

الخلق كيفيَّة تجعل الأشياء على هيئاتها قبل أن تُخلق؛ ولذلك فخلق هيئة الشيء تسبق جعله شيئًا، وهيئات الأشياء تأخذ في التناهي كبرًا وصغرًا، فما يظهر منها للمشاهدة والملاحظة الحسيّة يعدُّ شيئًا، وما يختفي عنها يعدُّ لا شيئًا.

وخَلقُ اللاشيء يدلّ على شيءٍ مختفٍ في ذاته أو محيطه؛ حيث لا صفة له سوى صفة الخلق التي هُيأت له خلقًا، وجُعل على هيئتها اللاشيئًا. ولا يعدُّ اللاشيء شيئًا إلّا بعد معرفته واكتشافه.

أمَّا الشيء على الرَّغم من أنَّه قابل للمشاهدة والملاحظة، فإنَّه لا يقتصر عليهما؛ فهناك من الأشياء ما لا يشاهد: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}[67]؛ فالكتاب مع أنَّه يشاهد، لكن ما يحتويه الكتاب لا يشاهد، بل يُدرك إدراكًا؛ فلو قلنا: الجهل شيء، نقول: التعلّم شيء آخر، وإذا قلنا: الحقّ شيء؛ فالباطل شيء آخر، وسيظل الجهل لاشيء حتى يتحقّق، وسيظل التعلّم لاشيء حتى يتحقّق: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}[68]؛ فالساعة علم تحقّق كونها تعني شيئًا معلومًا، وفي المقابل، لحظة قيامها تعني: لا شيء معلوم.

ولأنَّ اللاشيء المتناهي في الدّقة يملأ الكون؛ فإن قورن مع الشّيء من حيث المساحات التي يشغلها من الكون، يصبح الشيء لا شيئًا

[67] النحل: 89.

[68] لقمان: 34.

أمامه، ويكون اللاشيء هو الشيء العظيم، ولكن إن كانت المقارنة من حيث حجم المفردات الشيئيَّة واللاشيئيَّة؛ فلا شكّ تكون الغلبة للمفردات الشيئية الظاهرة حجمًا كالكواكب والنّجوم، وهكذا كلّ شيء في دائرة المقارنة النسبيَّة يتبدّل ويتغيّر بين متوقَّع وغير متوقَّع.

فاللاشيء الذي يملأ الكون وجودًا يعدُّ مادّة خلق الأشياء؛ فتلك الأجسام المتناهية في الصّغر، لو جمّعت بقوّة الطّاقة والحركة الكونيَّة، لكوّنت شيئًا عظيم يمكن أن يكون بحجم نجمٍ أو كوكب. ومن هنا، نستطيع القول: إنَّ هذا الشيء المتولّد بالطّاقة الكونيَّة، أصبح بإرادة المشيء له شيئًا، بعد إن كان لا شيئًا.

ولذلك؛ فاللاشيء هو المهيأ لوجود الشيء وفقًا للهيئة التي هيأها له الخالق. ومن ثمّ؛ فوجود اللاشيء سابق على وجود الشيء.

ولأنَّ وراء كلّ مخلوق خالق، والشيء مخلوق، إذن: فمن ورائه خالق، وإلّا هل هناك من يظن كما ظنّ لورانس كراوس أنّ اللاشيء خُلق هو الآخر من لا شيء؟

أقول: بما أنَّنا نصفه باللاشيء، إذن: فلا يمكن أن يكون خالقًا؟ أي: لا بدّ أن يكون مخلوقًا، وبما أنَّ الشيء مخلوق من اللاشيء، واللاشيء من ورائه خالق، إذن: لا بدّ أن يكون الشيء مخلوقًا ومن ورائه خالق لم يسبقه خالق: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[69].

[69] الواقعة: 60.

إذن: اللاشيء لو لم يكن موجودًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه موجود؛ فهو قابل للنّفي والإثبات، وإلّا هل هناك من ينفي وجود شيء أو يثبته لو لم يعرفه، ويعرف وجوده من عدمه؟

وبما أنَّنا نتحدث عن اللاشيء؛ إذن: نتحدث عن شيء حتى وإن لم نتمكّن من رؤيته، ولكن ما الفرق بين اللاشيء والشيء؟

اللاشيء هو الذي على الرّغم من وجوده نجهله، وبتناهيه في الصّغر لا يخضع للمشاهدة العينيَّة، ولكن إن حال بينه وبين معرفته جدار عاتم يمنع مرور الضّوء عبره لا يخفيه عن خالقه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[70]. وفي المقابل الشيء نعلمه، ونشاهده، ونلاحظه وندركه.

ولأنَّ اللاشيء لا يتولّد إلّا في دائرة المجهول؛ فسيظل هناك لاشيء، حتى لحظة اكتشافه التي من بعدها يصبح شيئًا وإنْ كان متناهٍ في الصّغر والدّقة.

فاللاشيء هو على غير صفة، فلو كان على صفة، لكان له مسمى، ولأنَّه يفتقدها؛ فهو لا شيء، أمَّا الشيء فله صفة ومسمى، مثل: الأرض، والشّمس، والقمر، ومثل: الكائنات والأدوات المشاهدة وغيرها من المتنوّع والمتعدّد.

وكما يتمدّد اللاشيء في دائرة المجهول نكرة؛ فكذلك الشيء يتمدّد نكرة حتى يتمّ تمييزه: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ

[70] آل عمران: 5.

تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}[71]؛ فشيئًا هنا، تعني: المجهول والمعلوم؛ إذ لا تحديد لشيء بعينه.

أمَّا اللاشيء، فيعدُّ مادّة خلق الشيء أو طينته؛ الذي لو لم يكن مخلوقًا، ما خُلق الشيء منه: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[72]. فالإنسان كونه شيئًا، كان لا شيئًا، سوى وجود عناصر خلقه مبعثرة في تراب الأرض جنّة: (عندما كانت مرتقة في السماء)، واللاشيء مثله مثل الشيء، لا بدّ وأن يشغل حيّزا، وإن كان الحيّز متناهٍ في الدّقة والصّغر ومبعثرًا في التراب.

وعليه: وجب علينا تبيان ما يدلّ عليه مفهوم اللاشيء حتى لا يؤخذ عنّا ما أُخذ عن تنظيرات العالم الفيزيائي لورنس كراوس الذي قال: "إنَّ الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له"[73]، أي: لاشيء يمكن أن يشار إليه بالشيء قبل خلق الكون من لاشيء.

أمَّا نحن فأسّسنا تنظيراتنا وفقًا لقانون الخلق: (لا مخلوق إلّا ومن ورائه خالق)؛ حيث لاشيء إلّا ومن ورائه مشيء له؛ ممّا يجعل المشيئة سابقة على المشاء؛ ولذلك فالمشيئة قرار مسبق على خلق شيء لم يسبق له أن كان شيئًا.

---

71 البقرة: 216.

72 مريم: 9.

73 A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012.

غير أنَّ العالم الفيزيائي كراوس يحاول أن يرسّخ نظريَّته: (كون من لاشيء) بمفهوم: (خَلقُ الكون بلا خالق)، معتبرًا أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء، ثمّ يرى من زاوية أخرى إنَّ الكون كان نتيجة انفجار تلك الذرة المتناهية في الصّغر[74].

وإن سلّمنا بخلق الكون من لاشيء؛ فهل الكون خلق نفسه من لاشيء لحظة الانفجار، أم أنَّ خلقه من لا شيء كان مترتّبًا على ذلك الانفجار، أم أنَّ خلقه من لاشيء كان مرتبطًا بذلك المنفجر؟

وإذا سلمنا أنَّ: (الكون خُلق من لاشيء)؟ فهل خلق نفسه عن تدبّر أم هكذا عبثًا؟ وإذا كان الانفجار سبب خلق الكون من لاشيء، فكيف يخلق من لاشيء، والانفجار شيء في ذاته؟ وهل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم تتوافر أسبابه؟ وكذلك، هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يتوافر له مكان وزمان؟ وكيف يُقبل أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء وفي ذات الوقت يقال: إنَّه المنفجر من شيء سابق عليه يسمي الذّرة؟

وإذا سلمنا أنَّ ذلك المنفجر هو ما وُصِف بالذّرة، أو النّقطة الصّغيرة؛ فكيف يصحُّ لبعض الفيزيائيين وصفها ذرّة وهم لم يتمكّنوا من معرفةٍ تمكّنهم من الوقوف عند أثرها، وبخاصّة أنَّ لحظة الانفجار لا بدّ أن تكون فاصلة بين المنفجر وانفجاره وما سيترتّب عليه لاحقًا؟

وعلى الرَّغم من هذه التساؤلات والافتراضات لكن اكتشافات العالم الفيزيائي كراوس قد أحدثت نُقلة في علم الفيزياء وبخاصّة تعريفه

---

[74] المصدر السابق.

اللاشيء الذي لم يعدّ لا شيئًا؛ كونه كما قال: "يعج بالجسيمات الافتراضيَّة، التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصّغر، لدرجة أنَّه لا يمكن مشاهدتها"[75].

إنَّ قول كراوس: إنَّ اللاشيء لم يعدّ لا شيئًا هو بحقّ إضافة معرفيَّة لمعارفنا، لأنَّ اللاشيء لو لم يكن شيئًا، ما تحدثنا أو تساءلنا عنه، وإلّا هل يمكن لنا الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ بمعنى: لو لم يكن اللاشيء موجودًا ما نفينا وجوده؛ ولهذا فالقاعدة العلميَّة تقول: (نفي اللاشيء يثبت وجوده شيئًا).

ومع ذلك؛ فاللاشيء يُعدُّ المجهول المحيّر الذي تتوافر معطيات وجوده وهو لا يتوافر إلّا أثرًا، ممّا يُحفِّز البحاث على صياغة فروض أو تساؤلات علميَّة تستند على ما يتوافر من معلومات بهدف البحث عن الجزء المفقود منها؛ فالعالم كراوس انطلق من المشاهد الكوني إلى ما لم يكن مشاهدًا؛ حتى اكتشف أشياء متناهية الصّغر والدّقة، ولا يمكن رؤيتها بالمشاهدة العينيَّة، وعندما تقارن بالأشياء الظّاهرة للمشاهدة توصف بأنَّها لاشيء.

فاللاشيء، لا يعدُّ غير موجودٍ، بل يعدُّ غير مكتشف، وغير مصنّف، ومع ذلك؛ فنحن مهما بلغنا من العلم نظل في حاجة للمزيد المعرفي حتى ندرك لا شيئًا: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[76]،

---

[75] المصدر السابق.

[76] الإسراء 85.

وبما أنَّنا لم نؤتَ من العلم إلّا قليلًا؛ إذن فما نجهله هو الأكثر؛ فيجب البحث والتقصي العلمي الممكِّن من معرفة ما نجهله حتى يظهر اللاشيء للوجود شيئًا معلومًا.

إنَّ معرفة اللاشيء، لا يقتصر على ما يمكن مشاهدته بالمناظير الدّقيقة، بل يمتدّ إلى ما يكتشف أثره حتى وإن لم يخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر يقول كراوس: "على الرّغم من أنَّنا لا نستطيع رصد الجسيمات الافتراضيَّة مباشرة، إلا أنَّنا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر"[77].

ومن ثمَّ؛ فاللاشيء، على الرَّغم من وجوده؛ فهو المجهول معرفةً، ويوصف اللاشيء بهذه الصّفة اللاشيئيَّة؛ لأنَّه غير الممّيز بخاصيّة منفردة؛ ممّا يجعل الشيء واللاشيء في موقع النَّكِرة؛ حيث انتفاء أو غموض الصّفة والخاصيّة والنّوع.

ولأنَّ الاختلاف من أجل المعرفة الواعية ظاهرة موضوعيَّة؛ أصدر العالم لورانس كراوس حُكمًا مطلقًا بأنَّ: (الكون خُلق من لا شيء)، ولكن بهذا الحكم اختلف بعض العلماء معه، وبعضهم خالفه مخالفة تامّة، وفي اعتقادنا الاختلاف والخلاف على الشيء لا يلغيه، بل يُثبته شيئًا.

[77] 'A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012

ولأنَّ اللاشيء يمثل 99% من كتلة الكون؛ فهل هذا اللاشيء هو مادّة خلق الكون التي خلق نفسه منها؟ أمّ إنَّ اللاشيء هو ذلك الذي ليس له وجود؟

وحتى لا يعلق في الأذهان شكٌّ، أو ظنّ فإنَّ ما يقصده لورانس كراوس، بقوله: (الكون خلق من لاشيء وبدون خالق) هو أنَّ الكون قد أوجد نفسه من غير وجود سابق عليه.

ومع أنَّ كراوس قد أصدر نظريتَّه: (كون من لاشيء)، لكن كيف جاء هذا الكون العظيم من لاشيء؟ في الوقت الذي يقول فيه: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه "اللاشيء". وأكبر طاقة في الكون، تشكل 70% من الطاقة الكونيَّة، التي هي موجودة في الفضاء الخالي، ونحن لا نمتلك أيَّة فكرة عن سبب وجودها هناك"[78].

ومن هنا، وجب فكّ اللبس والغموض الذي تثيره نظريَّة العالم الفيزيائي لورنس كراوس بقوله: "(إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه اللاشيء)، وفي الوقت ذاته يقول: (خُلق الكون من لا شيء)، ثمّ يقول: (لا يعدُّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا)"[79].

وإذا كان اللاشيء يسيطر على الكون؛ واللاشيء هنا هو: المكتشف الذي تعرّف عليه كراوس، والذي قال عنه: (لا يعدّ في علم

---

[78] المصدر السابق.

[79] المصدر السابق.

الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا) فكيف لنا بقبول ذلك، وهو قد أسّس نظريّته على قاعدة: (كون من لا شيء)؟

فالكون إذا خُلق من لا شيء، لا يمكن أن يسيطر عليه اللاشيء، وفي هذا الأمر كمن يقول: خُلق الإنسان من تراب والتراب يسيطر عليه؛ فالإنسان لو سيطر عليه التراب لكان الإنسان جدارًا.

ومع أنَّ نظريَّة كراوس تأسّست على: (كون من لاشيء) لكنَّها تتحدث عن الشيءِ (الكون) المملوء بالأشياء (دقيقها وعظيمها)، وهي التي لا ترى خالقًا للكون.

فإذا سلّمنا بهذه المقولات المتناقضة؛ فإنَّنا كمن يقول: خُلقت تلك الذّرة من تلك الذّرة، وخُلقت الأرض من الأرض، وخُلقت السّماء من السّماء، وخُلق الماء من الماء، وخُلق الإنسان من الإنسان!

إنَّ خلق الكون من لاشيء وفقًا لتعريف كراوس؛ يعني: أنَّه خُلق من شيء متناهٍ في الدّقة، وقد ترك أثرًا، ولكن إذا أجزنا هذا؛ فمن أين جاء ذلك اللاشيء المتناهي في الدّقة؟ أي: فمن أين خُلق ذلك الشيء السّابق على خلق الكون والذي يملؤه لا شيئًا؟

فنقول: يعدُّ اللاشيء ما نجهله ونسعى لمعرفته، واكتشاف أسراره، وسيظل أمره محيّرًا للباحثين حتى يتمّ اكتشافه، وتقصّي الحقائق المخفيّة وراءه، ومعرفتها عن بيّنة، من أجل إضافة شيءٍ جديدٍ لمعرفة اللاشيء الذي يملأ الكون ظلمة وعتمة.

أمّا قول كراوس: "إنّ معرفة الجواب لا تعني شيئًا، ولكن اختبار المعرفة يعني كلّ شيء"[80]. فأمره جدلي؛ كونه لا يرتبط بمسلّمة علميَّة؛ فبتحليل مفهوم المقولة: (معرفة الجواب لا تعني شيئًا) نعرف أنَّ المفهوم المقابل لها هو: (عدم معرفة الجواب تعني شيء)، ونحن نرى أنَّ الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر؛ ذلك لأنَّ الجواب يتمدّد في دائرة الممكن في الحيّز (مِن..... إلى) ممّا يجعل (مِن) الطّرف المرسل للإجابة وهو: الذي يعرفها، ويجعل من الطّرف (إلى) اتجاه الهدف، أو الطّرف المستقبل للإجابة وهو: الذي يجهلها، وفي كلتا الحالتين: الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر، ولكن من حيث الأهمية: الذي تتوافر لديه معرفة الإجابة مسبقًا، فلن يضاف إليه شيء؛ لكونه مصدر المعرفة، وفي المقابل الذي عرف الإجابة بعد أن كان يجهلها؛ فقد عرف شيئًا جديدًا. وبالتّالي فالطّرف الذي يعرف الإجابة، لن يعرف شيئًا جديدًا، ممّا يجعل محصّلته: (لاشيء)؛ أمّا الذي لم يكن يعرفها ثمّ تحصّل عليها فقد عرف شيئًا.

وفي كلتا الحالتين السَّابقتين، التوقّف عند حدّ معرفة الجواب؛ يعني: (اللاشيء)، ولكن الذي يعني شيء هو: معرفة الشيء في ذاته، وكيف خُلق ذلك الشيء: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[81]، يفهم من هذه الآيات عدم وجوبيَّة التوقّف عند حدّ خلق الأشياء التي منها: (الإبل، والسّماء، والجبال، والأرض)، فمع أنَّ هذه المخلوقات

[80] المصدر السابق.

[81] الغاشية: 17 . 20.

أشياء عظيمة، لكن الشيء الأعظم، هو: معرفة الكيفيَّة التي عليها خُلقت: الإبل، والكيفيَّة التي بها رفعت السّماء، والكيفيَّة التي بها نصبت الجبال، والكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض؛ فهذه الكيفيات الخلقية تستوجب الانتقال معرفيًّا من الشيء المشاهد (الصورة) إلى الكيفيَّة التي بها وعليها خُلقت الأشياء. ومن ثمّ، تصبح معرفة الشيء أيسر بكثير من معرفة الكيفيَّة (اللاشيء).

ومع أنَّ معرفة اللاشيء عظيمة، فإنَّ معرفة الشيء ضرورة ذات أهميَّة عالية، لأنَّنا لو لم نعرف الشيء عن بينة واختبار ما اكتشفنا اللاشيء؛ فالمعرفة شيء، واختبارها شيء آخر، ولكلٍّ أهميَّته، أمَّا القول: (اختبار المعرفة يعني كلّ شيء) فلا يؤخذ بالمطلق، ولكن في دائرة النّسبيَّة ما يبدو لك مهمًّا قد لا يبدو لغيرك.

وإذا أجزنا مقولة العالم الفيزيائي كراوس: (اختبار المعرفة يعني كلّ شيء) فلا بدّ أن نُخضع ما قاله عن خلق الكون من لاشيء إلى الاختبار والتجربة قبل أن نأخذ بمقولته، ولكن هذا ضرب من المستحيل؛ إذ لا إمكانيَّة لإخضاع الكون للاختبار والتجريب؛ فهذا الأمر يتعارض مع القاعدة الخلقية: (المحاط لا يحوط محيطه)؛ فعلى سبيل المثال: الزّجاجة المملؤة ماء، تظل محيطة للماء الذي يملأها، ولكن أن فرّغت منه وترك أمره حرًّا؛ فلا إمكانيَّة للماء أن يحوطها، وهكذا: (كلّ شيء) أو (لا شيء) محاط لا يمكنه إحاطة ما يحوطه.

وبما أنَّ الكون كما يراه الفيزيائيون يبدو مُسطّحًا؛ ويتمدّد متسارعًا في كلّ الاتجاهات، إذن: فلن يرسم بعد هيكل واضح للهيئة التي ينبغي أن يكون عليها كونًا.

وكذلك، إذا كان الكون غير مكوّر؛ فلا يمكن لأحدٍ أن ينظر أمامه ليرى مؤخرة رأسه؛ فهذه لا تتمّ إلّا على سطح الأرض المكوّرة، لكن الكون حتّى وإن افترضناه مكوّرًا ونحن في قلبه؛ فلا إمكانيَّة لرؤية ما على سطحه، حتى وإن كانت مؤخرات رؤوسنا.

ولأنَّ علماء الفيزياء يتحدّثون عن كونٍ منفجر ومتمدّدٍ، فهم يتحدّثون عن شيء معلوم الدّلالة، وغير معلوم الكيفيَّة، فهو معلوم الدّلالة من حيث خضوع كثير من مفرداته إلى المشاهدة والملاحظة، أمَّا كونه غير معلوم الكيفيَّة؛ فهو من حيث لا أحد يعلم كيفيَّة خلقه، ولا لحظتها، بل أصبح علماء الفيزياء يقرّون بوجود أكوان غير الكون الذي نعيش في قلبه؛ ممّا يدعو إلى القول: بأنَّ كوننا بما فيه من شيء ولا شيء؛ فهو شيء عظيم يدلّ وجوده على وجود أكوان أخرى نحن لا نعلم كيفيتها، حيث لا شيء يشاهد.

ولكن إن تمكّن عقل الإنسان من اكتشافها؛ فسنرى شيئًا أعظم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[82]؛ فماذا تعني: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)؟ تعني: سبعة أكوان: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[83]، هذه الآية تؤكّد أنّ السّبعة أكوان هي

[82] الطلاق: 12.

[83] نوح: 15.

أطباق فوق بعضها متوازية الوجود؛ حيث لا تماس، ولا اصطدام، كلّ في فلكه بين متمدّدٍ ويتمدّد.

ولأنَّ الأكوان خُلقت: (سماوات وأراضي)؛ فسيظل اكتشافها في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ ولهذا أصبحت المؤشرات بين أيدي علماء الفيزياء تدلّ على وجود أكوان خارج نطاق كوننا.

ومع أنَّ عالم الفيزياء كراوس لم يتمكّن من معرفة أيّ نوع من الأكوان هو كوننا، لكنّه أصدر حكمًا بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء، وهنا أتساءل:

كيف يمكن له أن يحكم على الكون بأنَّه مخلوق من لاشيء، وفي الوقت ذاته لا يعرف ما يميّز الكون الذي يعيش فيه عن بقية أنواع الأكوان الأخرى؟

ولأنَّ لورنس قال: (خُلق الكون من لاشيء)؛ فهو يرى لا ضرورة لوجود إله يخلقه، ولكن إن سلّم البعض بذلك؛ فالسؤال:

هل كلّ كون قد خُلق من لا شيء كما هو حال الكون الذي نظّر له كراوس؟ أم أنَّ كوننا فقط هو الذي خُلق من لاشيء، وبقيَّة الأكوان من ورائها خالق؟

وكيف لنا قبول ذلك، والعالم الفيزيائي يقرّ في نظريَّتِهِ: (كون من لاشيء) لا استطاعة لرؤية الانفجار العظيم؛ حيث وجود جدار عاتم يمنع مرور الضوء عبره؟[84].

ومن ثمَّ، ألا يكون هناك تناقض كبير بين قوله: (كون من لاشيء)، وقوله: (لا إمكانيَّة لمعرفة بداية خلق الكون من لاشيء)؟ وإذا لم يتمكّن من بلوغ نقطة بداية خلق الكون؛ فكيف لنا بحكم قاطع يقرُّ خلق الكون من لاشيء؟

أي: كيف لنا أن نقرّ بخلق الكون من لاشيء، ونحن متيقنين بأنَّه لا إمكانيَّة لبلوغ نقطة البداية، التي قد تُمكّن من معرفة ما إذا كان الكون قد خُلق من لا شيء، أم أنَّه قد خُلق من شيءٍ؟

ومع ذلك، يقول العالم كراوس: "نحن نعلم بدقة، 1%، أنَّ الكون مسطّح، ولديه طاقة كلية تساوي الصّفر؛ ولذلك يمكن للكون أن يوجد من لاشيء، ومن تلقاء ذاته "[85].

عالم لا يمتلك من الحجّة إلّا 1% وبها يحكم حكما مطلقا على أنَّ الكون خُلق من لاشيء؛ فهل يمكن أن تُجاز هذه الحُجّة وهي تفتقد 99% من الحقيقة؟

---

84 New Mystery of Invisible Matter Generated by Cosmic Collision, www.space.com, 17 August 2007.

85 المصدر السابق.

وفقًا لهذه النّسبة العالية التي تجيز عظمة اللاشيء أمام الشيء، يقول كراوس: "لو أزلنا من الكون كلّ شيء يُرى من نجوم ومجرّات وحشود مجرية؛ فالكون لن يتأثر عمليًّا[86] يدلّ هذا النصّ: على أنّ اللاشيء هو الصّفة الغالبة على وجود الكون؛ وبخاصّة أنّ كلّ الكون المرئي يمثل 1% في كون يحوي على 29% مادة معتمة، 70% طاقة معتمة، وبذلك ليست لنا قيمة على الإطلاق[87].

عالم يرى قيمة الإنسان مادّة، لا بدّ له أن يحكم بانعدام قيمته، ولكن لو قَلبَ الإنسان الصفحة في أيِّ اتجاه من اتجاهات القراءة السليمة ليقرأ قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[88]. لأمكن له أن يتذكّر، ويتدبّر، ويفكّر، ومن ثمّ لأمكن له الأخذ بما يجب والانتهاء عمّا يجب، وهنا تكمن قيمة الإنسان وعظمة الخالق.

86 المصدر السابق.

87 المصدر السابق.

88 النمل: 88.

خَلقُ الشيء

الشيء دلالة وجوديَّة تشير إلى المشاهد، والملاحظ، والمدرَك، ويعدُّ نكرة حتى يصنّف، ولا يكون شيئًا، إلّا بفعل المشيء.

وهو لا يكون البداية، ولا ساعتها، ولا كيفيَّتها؛ فمثله مثل اللاشيء؛ إذ لا شيء إلّا من مشيء؛ ولذلك فالكون لو لم تكن من ورائه مشيئة ما كان شيئًا.

ولأنَّ الكينونة هيئة خلقيَّة؛ فهي كما تسبق خلق اللاشيء، تسبق خلق الشيء، ولا شكل ولا صورة للأشياء إلّا بعد أن يهيئها الخالق في علمه لتكون أشياء مفعولة. ومن ثمّ؛ فلا شيء إلّا والمشيء سابق عليه، ولا شيء إلّا على كينونة (هيئة) يرتضيها المشيء.

ولأنَّه لا شيء إلّا على هيئة؛ فكيف تهيأ الشيء كونا قبل أن يكون شيئا من لاشيءٍ؟

التهيؤ: لا يكون إلّا عن علمٍ وإبداع، وهذه لم تكن من مكوّنات الشيء، بل من مسببات وجوده، فلو لم تكن سابقة عليه ما تهَيَّأ الشيء شيئًا، ومع ذلك علينا أن نميّز بين هيئة، ومهيئ، ومتهيء؛ فالهيئة صورة ما يكون عليه الشيء قبل أن يكون شيئًا، والمهيئ هو من يعلم أمر الهيئة ويجعل لها صورة قبل أنْ تصير شيئًا مفعولًا، والمتهيئ هو اللاشيء: (طينة التخلّق) التي منها يُخلق الشيء، وبها يُميّز حتى يصبح على الشّكل والصّورة.

وعليه: فقاعدة خلق الشيء: (لا شيء إلّا على مشيئة، ولا مشيئة إلّا من مشيء): {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[89]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[90]؛ فهذه من مشيئة الخالق الذي يعلم ما لا نعلم.

ولهذا؛ فالهيئة تصوّر تام للكينونة التي سيكون الشيء عليها قبل أن يكون شيئًا، والقاعدة: (المهيئ يسبق الهيئة).

وبما أنَّ الهيئة هي التي يُصوّر الشيء عليها؛ فهي لا تصوّر إلّا بفعل المهيئ، والقاعدة: (الهيئة تسبق المهيَّأ).

ولأنَّ الشيء لا يكون شيئًا إلّا على هيئة تسبقه؛ فالقاعدة: (الشيء يُفعل ولا يَفعل). فالشيء نكرة لو كان يَفعل لخلق نفسه من لاشيء قبل أن يكون شيئًا، وهذا ما يراه كراوس، ونحن نرى لاشيء إلّا بفعلٍ، ولا فعل إلّا من فاعل، ولأنَّ الشيء يفتقد قوّة الفعل وإرادته؛ إذن؛ فكيف له بخلق نفسه؟

وحتى لا يكون حوارنا سفسطائيًّا؛ فهل يمكن أن يوجد الكون (الشيء) بغير إرادة؟ أي: هل يُخلق شيء أو يُصنع عن غير دراية؟ وهل يمكن أن يُخلق شيء أو يصنع عن غير هيئة؟ ثمّ، هل يُخلق شيء من غير مادة لخلقه؟ وهل يُخلق شيء في غير مكان وزمان؟ وهل المكان والزمان من مكوّنات الكون (الشيء) أمّ أنَّهما المحتويان وجوده؟

---

[89] البقرة: 105.

[90] هود: 118. 119.

وبما أنَّ الشيء يفتقد لكلّ هذا؛ فهو بلا شكّ لا يمتلك صفة الخلق؛ ولأنَّه يفتقدها؛ فلا يكون إلّا ومن ورائه خالق: (وراء كلّ مخلوق خالق).

ولو أخذنا خلق الإنسان كمثال: فهل الإنسان خَلق نفسه؟

لا خلاف على أنَّه لم يخلق نفسه. وبما أنَّ الإنسان لم يخلق نفسه حتى من شيء؛ فكيف للبعض أن يقبل بخلق الكون نفسه من لاشيء؟

وحتى لا نذهب بعيدًا، ويتمّ التمسّك بخلق الكون من لاشيء؛ فالأرض التي هي أقرب وجودا من وجودنا، ممّ خُلقت؟

لا شكّ أنَّ الإنسان قد خُلق من الأرض؛ وهذا يعني: أنَّه خُلقَ من شيءٍ؛ ولأنَّ الأرض قد خُلقت بعد الانفجار العظيم بآلاف السّنين؛ فكيف خلقت؟ وما الذي كان وراء خلقها؟

فهل كانت الرّغبة هي التي وراء خلقها؟ أم الضّرورة؟ أم المشيئة؟ أم ماذا؟ وإن خُلقت هي الأخرى من لاشيء؛ فما هو ذلك اللاشيء الذي خلقت منه؟ وهل هو بالتمام مثل ذلك الشيء الذي خُلق الكون منه، أم أنَّه اللاشيء آخر؟ وإن كان الآخر؛ فما العلاقة بينه وبين ذلك اللاشيء الذي تفجّر معه، أو تفجّر قبله؟

وإذا عرفنا كيف جاء اللاشيء الذي خُلقت الأرض منه؛ فهل لنا بمعرفة كيف جاء اللاشيء السّابق عليه؟ ثمّ هل يمكن أن نقف على اللاشيء إنْ لم يكن هناك لا شيء؟

كلّ هذه الأسئلة ستكون متّصلة إلى النّهاية، ولكن من الذي أوجد النّهاية؟

ستكون الإجابة بالطبع الذي أوجد البداية، وهنا تكمن الإجابة، وهي: لكلّ شيء بداية ونهاية، ومن ثمّ؛ فلا بداية لشيء إلّا مشيئة الخالق، ولا نهاية لشيء إلّا مشيئة الخالق: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}[91]، وهو الفعّال لما يريد: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[92].

وإذا كان الكون قد خُلق من لاشيء، فهل كان ذلك اللاشيء وجودًا، أم أنَّه لا وجود؟ فإن كان وجودًا؛ فمن الذي أوجده؟ وإن لم يكن وجودًا، إذن؛ فكيف خَلَقَ الكون وجوده عن غير وجود؟

إنَّ الشيء لو لم يكن وجودا ما تساءلنا عنه، ولأنَّنا نتساءل عن وجودٍ؛ فالوجود لا يكون إلّا بفعل فاعل: (بخلق خالق) وخالق الشيء لا يمكن أن يكون شيئا، ولا يكون لا شيء، ولا يكون شيئا آخر؛ فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّة، وخالق الرّوح لا يمكن أن يكون روحا؛ فالخالق لا يكون إلّا خالقًا، (الخالق يَخلق ولا يُخلق)، يُبدِعُ ولا يُبدَعُ: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[93].

الشيء وإن كان نكرة، لكن لكلّ شيء صفة تميّزه؛ ومتى ما تمّ التعرّف عليها أصبح الشيء المنكّر معرفة؛ فالشيء يُطلق على أيّ شيء

---

[91] الحديد: 3.

[92] الأنبياء: 104.

[93] البقرة: 117.

مادّي أو غير مادّي، ولكن عندما يحدّد الشيء مثل السّماء يصبح اسم السّماء يدلّ على شيء دون غيره، وحينها لا تكون السّماء نكرة.

وهكذا، فأيّ حديث عن أيِّ شيء غير موصوف هو حديث منكّر، ولكن بتحديد المكان والزّمان والدّلالة والمعنى للشيء، يصبح الشيء غير منكّر. ونأمل ألا يفهم البعض أنَّ الشيء لا يرتبط إلّا بالمشاهد والمحسوس، بل دلالة الشيء تمتدّ من المفهوم والمعنى إلى الفعل والهيئة والشّكل والصّورة: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[94]، وكلّ شيء خُلِق يحاط ولا يحيط: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[95].

وعليه: فالقاعدة المنطقيَّة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

كلّ شيء مخلوق.

الكون شيء.

إذن: الكون مخلوق.

وبما أنَّ الكون شيء؛ فالشيء لا يكون إلّا مخلوقًا، ولا يكون إلّا في حيزٍّ، ولا يكون إلّا محدودًا حتّى وإن تناهى في الصّغر أو الكبر، والشيء حتى وإن أحاط بشيء آخر لا يكون إلّا محاطًا: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[96].

[94] الأنعام: 101.
[95] البقرة: 255.
[96] البقرة: 255.

فوسِع كرسيُّه؛ وسِعت إحاطته، أي: وسِعت إحاطة الخالق الأكوان (سماوات وأرضين). والكرسي هنا، هو كرسي السّعة والإحاطة الاستيعابيَّة، وليس كرسي الجلوس؛ فهو يدّل على خلق محيط لإحاطة الأكوان جميعها. وهذا يشير إلى أنَّ الأرض جزء من كوننا، وكوننا جزء من الأكوان المحاطة بالكرسي، وهو المخلوق لاحتواء الأكوان: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[97].

وكما سبق تبيانه في تعدّد الأكوان، وما توافر من دلائل علميَّة لدى علماء الفيزياء والفلك، فإنَّ بيّنة الخالق تدلّ على وجودها يقينًا: {لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[98]؛ فالسّبعة الطرائق، هي: الأكوان التي فوق الكون الذي نحن جزء منه، (وسبعة أكوان فوقكم)، تشير إلى علو الأكوان السّبعة المرتّبة طباقًا فوق بعضها البعض، وهي فوق الكون الذي نحن جزء منه، ولكن العلو لا يقتصر على علو المكان أو الحيّز، بل يدلُّ على علو المكانة أيضًا.

ولهذا، جاءت الطرائق بمعنى الخصوصيَّة والتميّز في كلّ كون من الأكوان السّبعة التي تعلو كوننا الذي هو الآخر يتميّز بخصوصيَّته: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[99]؛ تؤكّد هذه الآية أنَّ السموات السّبع هي الأكوان التي فوق كوننا، وكلّ كون منها منفصل عن غيره، ولا يتجاوز الطبق الذي خلق فيه؛ ولذا فكلمة طباق تدل على العناية والرّعاية

---

[97] النمل: 88.

[98] المؤمنون: 17.

[99] الملك: 3.

والتنظيم المصنّف لكلّ كون؛ وهذا ما لم يتمكّن علماء الفيزياء والفلك من بلوغه، على الرَّغم من أنَّهم أصبحوا متيقّنين من تعدّد الأكوان (Multiverse) وما كوننا إلّا أحدها، والأكوان المتعدّدة تسمى أحيانًا بالأكوان المتوازية (Parallel Universes)[100].

وعليه، فالقاعدة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

كلّ شيء محاط لا يحيط بمحيطه

الكون شيء محاط

إذن: الكون لا يحوط محيطه

وكذلك القاعدة المنطقيَّة تقول:

كل محاط مخلوق

الكون محاط

إذن: الكون مخلوق

وعليه: بما أنَّ للكون محيطًا، فهو شيء، ولأنَّه المحاط؛ فمحيطه شيء آخر.

---

[100] Have cosmologists lost their minds in the multiverse?
May 13, 2014 by Luke Barnes, The Conversation

ولأنَّ الكون شيء، ومحيطه شيء آخر، إذن؛ فكيف: (خُلق الكون من لاشيء)؟

وكذلك؛ فإذا كان ذلك الانفجار هو شيء عظيم، ألا يكون المنفجر شيء أكثر عظمة؟ وإذا كان الانفجار شيء والمنفجر شيء آخر؛ فكيف يمكن لنا أن نقول: (خُلق الكون من لاشيء)؟

وهل ذلك الشيء المنفجر لو لم تُخلق فيه معطيات الانفجار، أكان ينفجر؟ وهل الانفجار لو لم يزمَّن له وقت، يمكن أن يبلغ لحظة انفجاره؟ أي: هل ينفجر المنفجر لو لم يكن مؤقتًا؟ وهل يمكن أن ينفجر شيء في غير مكان وزمان؟

وبما أنَّه قد انفجر، ألا يعني ذلك أنَّ انفجاره بفعل الفعّال؟

ولأنَّه لا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، ألا يكون المشيء أعلم بأمر المنفجر من الذي عَلّمهُ؟ {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[101].

ومن ثمّ؛ فالقاعدة المنطقيَّة تقول:

وراء كلّ شيء مشيء،

الانفجار الكوني شيء

إذن: وراء الانفجار الكوني مشيء.

[101] يوسف: 76.

ولأنَّ وراء ذلك الانفجار الكوني مشيء، إذن: لو لم يشأهُ المشيء كونًا ما كان انفجاره لحظة الولادة.

ولأنَّ الانفجار الكوني وُصِفَ بأنَّه عظيم؛ فهل يمكن أن يكون انفجارًا عظيمًا لو لم يؤسّس على قانون؟ وهل يمكن أن يكون القانون لو لم يسبقه مقنّن: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[102].

خلقُ الفراغ

الفراغ جزء كوني عظيم، يشكل إطارًا من الطّاقة الواقية للأشياء من الاحتكاك، ويجعل الفراغات بينها مجالًا للتمدّد والحركة، ويعدُّ الفسحة المستوعبة لحركة الكواكب والنّجوم والمجرات والأجسام والطّاقة.

فالفراغ وجود لا يعطي مدلولات ماديَّة وإن ملأته الأجسام الدّقيقة، بل يعطي حيّزًا متعاظمًا: (ضيقًا واتساعًا)، ويضم أعدادًا من الأنواع من الجسيمات التي تتكون وتتّحد، وتتفاعل، وتختفي في محيط لا يعرف الهدوء أو السّكون؛ فطاقة الفراغ تملأ الكون؛ فلو لم تكن لانهار الكون.

والفراغ لا يعد عدمًا كما يظنّه بعض الفيزيائيين، بل وجودًا في ذاته؛ فلو لم يكن وجودًا، لكانت الأشياء جميعها كتلة واحدة، تجمّدًا أو تصخّرًا؛ إذ لا مجال للحركة والمكان والزّمان، وهذا يعني: اللاوجود.

---

[102] المعارج: 41.

إنَّ علاقة الفراغ بالحركة مثل علاقة الانحدار بالمتحرك على سطحه، فكلما زاد الانحدار زاد المتحرّك تسارعًا في تمدّده؛ فهكذا هو الفراغ يجذب المتحركات إليه جذبًا.

والفراغ مع أنَّه من مكوّنات الكون، فإنَّ الكون وإن عظم لا يكون إلّا محاطا بالفراغ، وإلّا كيف يمكن أن يكون كونا متسارعًا في التمدّد ولا فراغ يسمح بذلك؟

وهذا الأمر، يدلّ على وجود أكوان محاطة بالفراغ، مثلما تحاط به النّجوم والكواكب، داخل إطار الكون الذي نحن جزء منه، وإلّا هل يمكن للكون أن يكون كونا محصورا في وسطٍ صخري، أو محيطٍ متجمّد؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[103]. تدلّ هذه الآية على الخلق الأوّل للسّماوات والأرض (الأكوان) التي كانت وكأنَّها وحدة واحدة (رَتْقًا) حيث لا انفصال، ثمّ فُصلت (فَفَتَقْنَاهُمَا) بالفراغ الذي أحاط كلّا منها كما أحاط كلّ شيء فيها. فأصبحت سماوات وأراضين (أكوان) مفتوقة تسبح في الفراغ، دون تماس ولا احتكاك ولا تصادم كلّ في فلكه يسبح؛ فالسّماوات بعد أن كانت ملتحمة وكأنَّها سماء واحدة، والأراضين ملتحمة، وكأنَّها أرض واحدة، وكذلك، كانت السّماوات والأرضين مرتقا (كونا واحدا) فأصبحت بالفراغ أكوانا منفصلة، أي: فتقت السّماء والأرض، ثمّ فتقت السّماء سماوات، وفتقت الأرض أراضين.

---

[103] الأنبياء: 30.

ولذلك؛ فالفراغ يعد:

. حيّز وجود.

. حيويّة حركة.

. مجال امتداد.

ولكن إذا أخذنا بالقول الفيزيائي: إنّ الكون نتاج الانفجار العظيم، فأيّ كون هو نتاج ذلك؟ هل هو الكون الأوّل المرتق سماوات وأراضين؟ أم إنَّه الانفجار الذي نتج عن انفتاق السّماوات والأرضين (الأكوان)؟

ولذلك؛ فنحن نقرّ بانفجار كوننا مقذوفًا كغيره من الأكوان لحظة الانفتاق العظيم؛ ذلك لأنَّ الأكوان لحظة الانفتاق العظيم دُفعت بالقوَّة الطاردة تجاه الجاذبات (الفراغات) الخاصّة بكلّ كونٍ، حتّى لا يتجاوز كون منها حيّزه الفراغي المهيَّأ له. ولأنَّه انفتاق الأكوان؛ فلا شكّ أنَّه عظيم.

وتطفو الأكوان في الفراغ مثل الماء بالنّسبة للسّفن التي تطفو دون غرق، وفقًا لقانون الطفو: (إذا طفا جسم واستقر فوق سطح سائل فإنَّ قوَّة دفع السّائل على الجزء المغمور من الجسم تعادل وزن الجسم الطافي كلّه)، وهكذا هو الفراغ يحمل الأكوان طفوًّا.

إذن: فالانفتاق العظيم، جعل الفراغ بين الأكوان طرائق؛ حيث لا تماس لهيئة، أو كيان كوني: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[104]،

---

[104] المؤمنون 17.

الطرائق طبقات أكوان فوق بعضها البعض، وبين كلّ طابق وآخر فراغ محيط.

ومع أنَّ الفراغ فاصل بين الأكوان، فإنَّه المهيأ لكلّ كون، وإلّا هل يمكن أن يحلّ كونٌ محلّه لو لم يكن مهيَّأ له فراغ؟ أي: لو لم توجد للأكوان أماكن فارغة لتحلّ فيها وتطفو؛ فهل يمكن أن تكون الأكوان كما هي عليه أكوانًا؟

ولأنَّه الانفتاق العظيم، فهل كان هذا الانفتاق من لا شيء؟ أم إنَّه كان من شيء؟ أم إنَّه من غير ذلك كلّه؟

الكون لو لم يكن شيئًا مخلوقًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه المخلوق وإن أُختُلِفَ على خَلقه من لاشيء أو خَلقه من شيء؛ فهو الكون المخلوق. لكن الاختلاف أصبح بين من يره مخلوقًا من لا شيء، بأسباب انفجار عظيم لا يمكن إثباته، ومن يره كونًا من أكوان الانفتاق العظيم، استنادًا على الوحي الموحى، الذي أنزل حُجّة قبل أن يجتهد مجتهد في علم الفيزياء والفلك، ليقول: خُلق الكون من لاشيء.

إنَّ ذلك الانفتاق العظيم ما كان له أن يكون لو لم يكن الفراغ طاقة فاصلة بين تلك (المرتقات) سماوات وأراضين؛ ولهذا فكوننا هو كون من الانفتاق العظيم، ومن ورائه خالق، وليس بكونٍ من لاشيء.

الفراغ المكاني:

الفراغ قوَّة إحاطة وجذب، تحفّز المتحرك على الحركة والتسارع، وهو حيّز لحركة الأجسام المشاهدة والملاحظة، فلو لم يكن الفراغ سابقًا على

الأشياء، ما كانت أشياءً؛ فالأرض افتراضًا: لو أخرجت من الحيّز الذي تشغله، ألا يكون مكانها مصدر جذب لأشياء أخرى تشغله؟ وفي المقابل: لو كان مكان الأرض مشغولًا بشيء آخر؛ فهل يمكن أن تكون الأرض إن لم يكن لها مكان تشغله؟

فالحيّز مكان للامتداد والحركة المتناهية؛ فلو لم يكن المكان قابلًا للانشغال أمام الشيء المتحرك تجاهه، ما كانت الحركة، وإلّا هل يُعتقد أن تكون الحركة لو لم تكن الفراغات محيطة بكلّ متحرك؟ وهل يمكن أن نمشي على أقدامنا لو خليت الدّنيا من الفراغات غير المشاهدة؟ وهل يمكن أن تطير الطّائرة لو كانت السّماء عبارة عن أجسام متّصلة؟ وهل يمكن أن تكون للمدفع فوهة لو لم يكن للفراغ وجود؟

وعليه: فكلّما زادت كثافة الأجسام وقلت الفراغات قلت الحركة، وكلّما زادت الفراغات كانت الحركة أكثر تيسيرًا.

وقد يتساءل البعض: هل للفراغ مكان، أم إنَّه مكان بذاته؟

إذا كان الفراغ مكوّنًا طبيعيًّا؛ فلا بدّ أن يكون له مكان، وإذا كان مكونا ميتافيزيقيًّا؛ فهو المجرّد من المكان، وبالتّالي فلا مشاهد. ولكن بما أنَّنا نتحدث عن الفراغ؛ فإنَّنا لا شكّ نتحدث عن وجودٍ حتى وإن وصف باللاشيء، وبما أنَّه موجود بيننا، إذن: فبالضّرورة يشغل حيّزا، وبما أنَّه فراغ، إذن: فهو المحصور بين محيطٍ متماسكٍ، ويشغل حيّزًا حتى وإن كان متناهيا في الصّغر؛ ولذلك فالفراغ يحيط بكلّ شيء، كما أنَّه يشغلها حيّزات.

والفراغ يمكن أن يكون تامّا غير مناسب للحياة، ويمكن أن يكون خلاء طبيعيا ممهدا للحركة والتمدّد؛ فالفراغ غير التّام ميسّر للحركة، أمّا الفراغ التّام فمعسّر لها.

ولذلك؛ فالفراغ المكاني يعدّ حيزا تشغله الأجسام ويمكن ملاحظته؛ فالمكان الفراغي سابق على الشيء الذي يمكن أن يشغله، كأسبقية القالب على ما يُقولب فيه من مادّة؛ ولذلك فالفراغ المكاني إطار عام لاحتواء الشيء واللاشيء، ومع أنَّ الأرض مكان لنا، فإنَّه لو لم يكن لها مكان فارغ لتكون فيه ما كانت.

ومن ثمّ؛ فمكان الكواكب والنّجوم والأشياء دائما يساوي أحجامها، ولا يمكن أن تشغلها إلّا بعد طرد فراغاتها والإحلال محلها، ولا يبقى الفراغ إلّا محيطا عظيما يحفظها في أفلاكها وأماكنها، ويتيح لها إمكانيَّة الحركة.

ولكن، هل محيط الأشياء يلاحظ، أم يشاهد؟

الأشياء المادية تشاهد؛ لأنَّها تشغل الحيزات بالمادّة، ولكن على الرَّغم من أنَّها في حالة حركة؛ فحركتها لا تشاهد؛ ولذلك فنحن لا يمكننا رؤية الحركة، ولكننا نرى المتحرك؛ فالحركة تلاحظ، والمتحرك يشاهد، ومن ثمّ؛ فمحيط الأرض لا يمكن مشاهدته لأنَّه مجال التمدّد وفسحة الحركة، أمَّا المتحرك كوكبا أو نجما أو أيّ شيء فيشاهد.

فالمتحرك يشاهد لأنَّه شيء: (شكلا وصورة)، أمَّا الحركة؛ فلا شيء، حيث (لا شكل ولا صورة)؛ لذلك فكل الأشكال الهندسية لا

يمكن أن تكوّن أشكالا إلا ولها فراغ مكاني، ومن ثمّ فمحيط الأرض ليس مادّة مشاهدة، ولكنّه يلاحظ.

الفراغ حاضنة الأشياء:

الفراغ سِعة مهيأة لاستيعاب الأشياء كبرت أم صغرت، يحتوي كلّ شيء حتّى وإن تمّ احتواء شيء منه، إنَّه حاضنة الأكوان؛ إذ لا شيء يكون إلّا في فراغ، ومن ثمّ؛ فالقاعدة المنطقيَّة:

(الفراغ حاضنة الأشياء).

والحاضنة هي المهيَّأة للوجود الحي؛ لتمدّه بما هو في حاجة ماسّة إليه من أجل البقاء. وكلّ شيء يمكن أن يحاط، إلّا الفراغ مهما أحطنا منه من شيء، فسيظل محيطًا لكلّ شيء يحاط.

والكون الذي يشكل الفراغ 90% من كتلته: (مجمل الطّاقة المظلمة والمادّة المظلمة)[105]. محاط بفراغ يفصله عن الأكوان الأخرى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[106].

فالفراغ هيئة مكانيَّة حاضنة لكلّ شيء في الكون، وفي الوقت ذاته حاضنة الكون بأسره. وإلّا هل يمكن أن يكون الكون متسارعا في تمدّده لو لم يكن الفراغ بساطه ومحيطه؟ وكيف يمكن للكون أن يكون كونا مع أكوانٍ أخرى لو لم يكن الفراغ حاضنة لكلّ كونٍ؟

---

[105] https://hyperstage.net/wp-content/uploads/2014/08/a-universe-from-nothing.png

[106] الطلاق: 12.

ولأنَّ الفراغ هيئة بلا صورة؛ فهو المتهيأ لاحتضان الأشياء، والممهّد لحركتها، ومع أنَّه الفراغ، لكنّه مليء بالأجسام الدّقيقة غير المعسّرة للحركة؛ ولذلك ففراغ الكون لا يعدّ فارغًا.

وكلّما كانت نسبة الفراغ واسعة طال البقاء، وكلّما ضاقت هذه النّسبة اقتربت النّهاية؛ فالكون الذي يملأه الفراغ بنسبة 90% لو امتلأت هذه النّسبة مادّة صلبة؛ فهل يمكن للحياة أن تجد مكانًا؟

لا شكّ إذا امتلأ الكون فراغًا حتى أصبح لا فراغًا، سيحدث الانفجار، وتصبح المادّة المنفجرة أشياء متناثرة في كون عظيم.

ولكن: لماذا يتمدّد الكون؟

يتمدّد الكون انبساطًا بقوّة الفراغ الجاذبة، وقوّة الفراغ الدّافعة؛ فذلك الانفجار العظيم بأسباب قوّة الانفتاق دُفع انبساطا في كلّ الاتجاهات، كما دُفع غيره من الأكوان المنفتقة: (سماوات وأراضين)، وفي المقابل الجاذبيَّة كلما اقترب المتمدّد من مركزها ازداد تسارعا؛ ولذلك فالقاعدة العلميَّة: (لا تمدّد إلّا في فراغ)، أي: إذا انعدم الفراغ استحال التمدّد.

والقاعدة المنطقيَّة ترى:

كلّ تمدّدٍ في الفراغ.

الانفجار تمدّدٌ.

إذن، الانفجار تمدّدٌ في الفراغ.

ولأنَّه لا انفجار إلّا في الفراغ، إذن: فذلك الانفجار العظيم لو لم يسبقه فراغ ما انفجر كونا عظيما؛ وكذلك حال الانفتاق لا يمكن أن يكون لو لم يتوافر حيّز لتمدّد الأكوان المنفتقة.

فالفراغ حيّز استيعابي تتمدّد الأشياء فيه وتتكاثر، وإن سحبت الأشياء منه لا يتأثر "فلو أزلنا من الكون كلّ ما يمكننا رؤيته من نجوم ومجرات وحشود مجرية، كلّ شيء تمامًا، فالكون لن يتأثر عمليًّا"[107].

ومع ذلك؛ فعلينا أن نميّز بين الفراغ والخلاء؛ فالفراغ حيّز تمدّد الأشياء، والخلاء مكان يفتقر للإعمار أو الامتلاء؛ فالفراغ حيث لا يتواجد الشيء، والخلاء حيث يتواجد الشيء، فعلى ظهر الأرض تشاهد الخلاء، أمّا الفراغ فيحيطها ويتخلّلها. وهكذا ترى الزجاجة الخالية من السائل، مملؤة فراغًا.

ولأنَّ الفراغ يمثل الجزء الأعظم من الكون؛ فلا أحد يتساءل: ممّ خلق الفراغ؟ ولذلك فسبب وجود الكون هو السّبب في وجود الفراغ، والقاعدة الخلقية تقول:

كلّ مخلوق من ورائه خالق.

الفراغ مخلوق.

إذن: فمن ورائه خالق.

[107]https://hyperstage.net/wp.content/uploads/2014/08/a-universe-from-nothing.png

ومع أنَّ الفراغ يحتوي الأكوان، لكنّه يشكّل الجزء الأكبر منها؛ فالأكوان محمولة بحيويّة الفراغ، وكأنَّها بالونات هوائيَّة، وهي لا شيء بالنّسبة للهواء الذي يحوطها.

الوجود

مع أنَّ دلالة الوجود وماهيته واحدة، لكن مقاصد الباحثين في ميادينه تختلف باختلاف الثقافات والمعارف والانتماءات العقدية؛ فما يره البعض وجودا قد لا يره البعض كذلك: (فلاسفة وعلماء)، وبين هذا وذاك؛ فالوجود لا يكون حيث لا وجود، فهو يشغل حيّزا وإن كان متناه في الصّغر: (ماديًّا أو معنويًّا).

فالوجود إثبات لا يكون في حاجة لمثبت؛ فالصّمت الذي هو امتناع عن الكلام بإرادة يعدّ إثبات وجود، وفي المقابل الجبال تعبّر عن وجود راسٍ على الأرض المتحرّكة وجودًا، وهكذا، الحقّ وجود في مقابل وجود الباطل، وكلّ شيء نعترف به أو ننكره نثبت وجوده. وإلّا هل يمكن لنا التحدّث عن شيء (إثباتًا أو نفيًا) لو لم يكن موجودًا (وجودًا) مشاهدًا أو مدركًا وملاحظًا؟

فالكون العظيم خُلق وجودًا مرتقًا، ثمّ فُتق أكوانًا نعلم وجودها ولا نعلم سرّها سوى شيء من كوننا الذي يرشد إليها وجودًا.

ومع أنَّ الفيلسوف سارتر قد ميّز بين الوجود وأسبقيَّته، والماهيَّة وألحقيتها، لكنّ رؤيته الفكرية ربطت الوجود بالفاعليَّة والحرّيَّة، وكأنَّ من لا يدركهما لا وجود له.

وهنا أتساءل:

هل يحقّ لنا ألا نحسب وجودا للكون المرتق الذي وجدت منه الأكوان المفتقة والأرض التي دَحِّيت منه وما فيها وما عليها من أنهار وجبال وكائنات كونها لا تمتلك مدركات الحرّيّة؟

وبما أنَّ الوجود يشغل حيّزا، إذن: فلا إمكانيَّة لإنكار ما يشاهد أو يلاحظ وجودًا: (وجود حياة، أو وجود أثر)؛ فالوجود: يحتوي على الدّلالة كما يحتوي على الكينونة (الماهيَّة) حيث لا ماهية إلّا لوجودٍ، أي: لو لم يكن الوجود بفعل فاعلٍ ما كانت الماهية بإرادة المفعول المخيّر في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

فالوجود لا يكون إلّا عن قوّة وإرادة فعّالة، ممّا يجعل مشيئة الوجود بيد الموجد بالقوَّة، والقوَّة الفعّالة يمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون نسبية ممكنة؛ فالخالق يخلق بالقوَّة المطلقة، والصّانع يصنع بالقوَّة النسبيّة، ومن هنا؛ فالإنسان يمتلك القوَّة التي تستوجب حُسن تصرّف؛ فإن كان التصرّف عن إرادة حرّة، كان الإنسان مسئولًا عن تصرفاته سلبًا وإيجابًا، ومن ثمّ؛ فالتسيير مطلقٌ بالقوَّة، والتخيير نسبيٌّ بالإرادة وفقا للمقدرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

إنَّ الوجود شيء لا يخفى وإن قصر البعض عن إدراكه؛ فهو عظيم في تناهيهِ كبرًا وصغرًا وتوازنًا، وسيظل الوجود نكرة إلى أن يُدرك ويعرّف صفة وخاصيّة ومفهومًا ومعنىً.

فالوجود خَلقٌ بفعل الخالق؛ فلو لم يكن الخالق ما كان للوجود وجود، وأوّل وجود نعلمه، هو: وجود الكون المرتق، ثمّ الانفتاق العظيم الذي جعل من الكون المرتق أكوانًا مفتقة، بُعثت فيها الحياة وجودا متكاثرًا بغاية خلقيَّة لا يدركها إلّا الخالق، ولكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لكلّ متدبّر وجودا يدركه في دائرة: (السلبيَّة والإيجابيَّة)، وخير المتدبّرين الذين يمتلكون الحرّيَّة ويتصرّفون عن إرادة بلا مكاره.

ومن ثمّ؛ فالوجود نشوء يتولّد خلقًا بعضه من البعض، كتولّد الأكوان من الكون المرتق، وتولّد الأرض من كوننا الذي يملأه الوجود بالقوَّة الخلقيَّة، ثمّ نشوؤنا من الأرض وإنباتنا منها نباتًا.

والوجود ارتقاء إنساني: (ثقافة، وفكر، وعلم، وخُلق، وذوق) به يتميّز الإنسان: (قيمة في ذاته) عن بقية الوجود الواسع، سواء أكان مدركًا لما حوله عن إرادة حرّة، أم أنَّه يجهل أمره؛ فهو في كلتا الحالتين الإنسان الذي خُلق وجودًا في أحسن تقويم، ومن هنا، وجبت رعاية القصّر والمعاقين والعجزة والمرضى، كما وجب الإصلاح والتغيير للأفضل من أجل من خُلق في أحسن تقويم.

وعليه:

فالوجود الإنساني في أساسه وجود منتج متطوّر ارتقاء، ولكن بعلل القصور وأسبابه المختلفة جاء الاستهلاك وفقا للحاجات المتطوّرة استثناء. ولهذا؛ فالوجود الإنساني ينبغي أن يكون دائمًا في حالة ارتقاء،

من خلال تطوّر الحاجات وتنوّعها وضروراتها التي تستوجب التدبّر؛ تفاديًا للانحدار والهلاك.

ومع أنَّ الوجوديَّة كما يرها سارتر تنادي بمبدأ أسبقيَّة الوجود existence على الماهيَّة essence، لكنّنا نقول: لا الدّجاجة أسبق على البيضة، ولا البيضة أسبق على الدّجاجة؛ فالوجود والماهيَّة شيئان في شيء واحد، فلو لم يكن الوجود ما كانت الماهيَّة، ولو لم تكن الماهيَّة ما كان خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ فماهية الإنسان لو لم تكن معطياتها قد خُلقت وجودًا، ما كان للإنسان رُقيّ، ولكن الإنسان وإن ارتقى إلى ما يمكن بلوغه ارتقاء؛ فسيظل قاصرًا وفقًا لقدراته المحدودة التي لا تمكّنه من أن يكون الله كما اعتقد الفيلسوف سارتر بقوله: "أن أكون إنسانًا، هذا يعني أن أنحو لكي أكون الله"[108].

ولأنَّ القاعدة المنطقيَّة تقول: (لا معلول إلّا ومن ورائه علّة، ولا سبب إلّا ومن ورائه مسبّب)؛ فالاختلاف إذن: وجب مع قول الفيلسوف سارتر: "كل موجود يولد بلا سبب، ويستطيل به العمر عن ضعف منه، ويموت بمحض المصادفة"[109]. ولكن لا أدري كيف يموت الموجود بمحض المصادفة وهو لا يمتلك قرار موته، وبخاصّة أنّ سارتر قد ربط الوجود الإنساني بالحرّيَّة، وكأنّ من لا حرّيَّة له لا وجود له!

---

[108] جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتيَّة، (ترجمة: عبد الرحمن بدوي) دار الآداب، بيروت، 1953، ص 218.

[109] المصدر السابق، ص 126.

ولأنَّ الكمال لله وحده كان التناقض في شيء من تنظيرات الفيلسوف سارتر الذي قال: "عندما الأغنياء يخوضون حروبًا مع بعضهم البعض، الفقراء هم الذين يموتون" أي: إنَّ سارتر قد اعترف بسبب من أسباب الموت وهو الاقتتال والحروب، التي تدور رحاها من أجل المكاسب والمغانم أو الحرّيَّة، التي هي السّبب في موت الفقراء بقرار من الأغنياء، وهنا لا موت بمحض المصادفة، بل الموت بسبب من ورائه مسبب[110]، أي: إنَّ الموت لم يكن مطلبًا، بل هو وجود لا يمكن إنكاره؛ فمتى ما شاءه المميت كان وجودًا شاهدًا على نهاية الحياة؛ فالموت لو لم يكن وجودًا فاعلًا، ما كان له أثر مشاهد ومحسوس وملاحظ.

وعليه:

فالوجود لا يقتصر على من يمتلك زمام أمره عن حريّة كما يره سارتر، بل يمتدّ ليشمل كلّ شيء يمكن أن يتمّ التحدّث عنه، سواء أكان ماديًّا أم معنويًّا: (مشاهدًا، أو ملاحظًا، أو مدركًا)؛ أي: سواء أكان مكانًا أم زمانًا: (حركةً وسكونًا) وسواء أكان هيئةً أم تهيؤًا، أم أنَّه كان قرارًا وإرادةً ومسؤوليّة.

ولأنَّ وراء كلّ معلول علّة، ووراء كلّ سبب مسبّب، إذن: فلا موجود إلّا ومن ورائه واجد له، أي: لا موجود إلّا ومن ورائه من أوجده على قيد الحياة والممات: (بداية ونهاية)؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم يكن من ورائه خالق ما كان وجودًا؛ ولهذا فالخرافة الضارة أن

110 سارتر، جان پول، الغثيان، (ترجمة: فارس ضاهر، عدنان منافيخي) ط 2، 2006، ص 74.

يؤخذ بقول الفيلسوف سارتر: "إنَّ الله خرافة ضارة"[111]، وبخاصّة أنَّه يعلم أنَّه لم يَخلُق نفسه، أي: لو لم يكن من ورائه خالق عظيم ما كان شيئًا مذكورًا: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[112].

ومع أنَّ سارتر يعلم أنَّه لم يخلق نفسه، لكنّه ظنّ أنَّه لا إله يسبقه؛ ولهذا فهو لا يعلم الحكم المسبق عليه قبل أن يُخلق: (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)؛ فها هو سارتر لم يكن شاكرًا، وهذه من سُنن الخلق البشري حيث البعض قد اغترّ بالخالق، الذي خلقهم على التسيير والتخيير الحر: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[113].

أي: إنَّ الذي غفل عنه سارتر هو: أنَّه لو لم يكن قد خُلق على فرصة التخيير ما كان له أن يكون كافرا. ولأنَّه خُلق مخيّرا فيما يشاءه عن إرادة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فهو لا يرى وجودا لمن لم يكن حرّا. وفي هذا الشأن قد غفل عن الوجود المسيّر، وهو: ما لم يكن داخل دائرة النسبيَّة؛ فالوجود كلّه وجود تسيير وتخيير؛ فالتسيير حيث لا إمكانيَّة للتبديل أو أخذ الأمر والرأي وإن صدر أو قيل من قبل القائلين؛ ولذلك فاليوم لا يتبدّل والنّهار لا يتبدّل، وخلق الأجناس لا يتبدّل وإن تغيّرت الأنواع جينيّا.

---

111 المصدر السابق.

112 الإنسان: 2، 3.

113 الانفطار: 6 . 8.

ومن ثمّ؛ فالتسيير لا تبديل فيه، والتخيير فيه التبدّل؛ فالوجود الإنساني ثابت حيث لا تخيير، وفي المقابل جوهره (ماهيته) تتغيّر تخييرا، وفقا للقدرة والاستطاعة، والرّغبة والحاجة المتطوّرة؛ ولذلك فسارتر لو لم يكن وجوده على التخيير ما كان له أن يقول: (إنَّ الله خرافة ضارة)؛ ولأنَّه قالها فهو قد أثبت غفلته عن حقيقة خلقه: (تسييرا وتخييرًا)، أي: لو علم سارتر بخلقه مخيّرا لآمن أنَّ من وراء وجوده خالقًا.

ومع أنَّ سارتر لم يغفل عن الوجود والماهية، فإنَّه قد غفل عن الهيئة التي تسبق الوجود؛ فالوجود: (أيّ وجود) لا يكون إلّا على هيئة تسبقه بفعل فاعل يسبقها. فلو لم تكن الهيئة وجودًا سابقًا على الوجود ما هُيّء الوجود على هيئاتها وجودًا مشاهدًا وملاحظًا ومدركًا.

وعليه: فالهيئة في علم المهيّء، لها الأسبقيّة على وجود المتهيأ عليها، والمتهيّأ عليها يسبق ماهية من أصبحت له هيئة خاصّة به، وهي التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفةٍ، وخصوصيَّةٍ، ومهنةٍ، وحرفةٍ، وتجربةٍ، وخبرةٍ.

ومع أنَّ الوجود مؤسّس على ماهيَّة سابقة، وهيئة لاحقة، ولكنَّ لا مفرَّ له من العدم؛ فالعدم بعد الموت يلاحق الأموات بمختلف أنواع الخلائق التي تملأ كوننا.

العدم

العدم أثر وجود شيء، وليس الوجود في ذاته، سواء أكان ذلك الأثر يدلُّ على أثر الأحياء، أم أنَّه يدلّ على أثر الأموات والأشياء المنتهية.

والعدم لم يكن الموت، ولم يكن النّهاية؛ فالموت فعل بيد الخالق، والنّهاية توقّف الفعل أو المقدرة، وليس بالضّرورة توقّف الحياة.

فبصمات الأحياء وصورهم وعيّنات دمائهم لا تزيد عن كونها أثر (عدم) يدلّ على شيء، وليس الشيء ذاته؛ وكذلك الرّفات البالي لأيِّ شيء هو أثر (عدم) لشيءٍ كان موجودًا على قيد الحياة.

والعدم لم يكن مصدر خلق الأحياء كما يره البعض، بل هو ما يؤول إليه مصيرهم، وهو الفعل المتحقّق أثرًا؛ فالعدم لم يكن فعل الموت، ولا فعل الإنهاء، ولا يكون الوجود منه. بل على العكس من ذلك لا يكون العدم إلّا من وجودٍ. فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ فالعدم هو الفعل المترتّب على الوجود الذي لا بدّ من نهايته أو موته وعدمه.

ولأنَّ لكلّ بداية نهاية؛ فالوجود ليس له بدّ إلّا النّهاية، وبعد النّهاية يصبح الزّمن كفيلًا بجعله عدما. وإلّا هل هناك من باقٍ غير الباقي الذي يجعل من الوجود عدما؟

ولأنَّ العدم يستظلّ بظلّ الوجود، فهو يلاحق الموجودات تحت ظلّه لحظة انتهائها من المشاهدة المباشرة؛ ومع ذلك فالوجود هو: القاعدة، والعدم هو: الاستثناء: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[114]؛ فتلك العظام التي كانت وجودا على قيد الحياة، أصبحت رميما باليا لا علاقة له بالحياة إلّا البعث.

فالوجود كونه قاعدة؛ لأنَّ صفته البقاء، والعدم كونه استثناء؛ لأنَّ صفته الانتهاء: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[115].

ومع أنَّ الوجود الأوّل خُلق من لا شيء، بفعل الخالق، لكن من بعده كثير من المخلوقات خلقت من أشياء كما هو حال الإنسان وغيره كثير: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[116]، ثمّ كثير من الوجود خُلق تكاثرا: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[117].

وعليه: فلا (حياة) إلّا عن خَلق، ولا (إحياء) إلّا من عدم: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[118]؛ ولذلك فالوجود سابق على العدم، والحياة سابقة على الإحياء.

ومع أنَّ مفهوم العدم يختلف عن مفهوم الوجود، فإنَّ هناك علاقة وثيقة بينهما؛ فالعدم الذي يلاحق الوجود الحي ليجعله رميمًا باليًا، لا بدّ أن يكون فعله على قيد الحياة موجودًا، وإلّا كيف له بجعله عدما؟

[114] يس: 78، 79.

[115] العنكبوت: 64.

[116] يس: 36.

[117] الروم: 20.

[118] الروم 27.

ولأنَّ العدم على قيد الحياة وجود، فلا يمكن أن يكون نقيضًا للوجود بأسره؛ ولذلك فالوجود مفهوم مطلق يحتوي كلّ شيء على قيد الحياة، بما فيها العدم، ومن هنا، فالعدم ليس نقيض الوجود، بل هو جزء منه. وإلّا هل هناك من يرى أنَّه لا وجود للعدم؟

ولأنَّ للعدم أثرًا، إذن: فهو موجود، وإلّا هل هناك من يرى أنَّ وجود الأثر لا يدل على وجودٍ؟

ولأنَّ العدم موجود؛ فلا يمكن أن يكون ذا مفهوم مضادٍ لما هو عليه (الوجود)؛ ولتبيان ذلك، أتساءل:

ما هو دليل إثبات الوجود؟

ما هو دليل إثبات العدم؟

الوجود والعدم لا مادّة حيث لا يشاهدان؛ ولأنَّهما كذلك فهل يظنّ البعض أنَّهما غير موجودين؟ ولكن إن اعترفنا بوجودهما؛ فماذا يعني؟ وإن اعترفنا بوجود أحدهما، وليكن الوجود، فأين الآخر (العدم)؟ أي: هل انتهى العدم من الوجود، ولن نخشاه بعد اليوم أبدًا؟ أم أنَّه باقٍ يلاحق الأحياء أينما حلّوا؟

أقول: كيف نقبل بأنَّ للحياة الدّنيا ركائز رئيسة وعلى رأسها الوجود والعدم، ثمّ نأتي لنقول: العدم عكس الوجود؟

فإن قبلنا بذلك؛ فإنّنا كمن يقول: لا وجود (لا حياة). بمعنى: وكأنَّه أينما وُجد وجود عُدِم.

ولأنَّ لكلٍّ من الوجود والعدم أثره، إذن: فكلاهما موجود؛ فكما خَلق الخالق الوجود خلق العدم، ولكلّ فعله، وبما أنَّهما مخلوقان، إذن: فهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة.

وماذا يعني: أنَّهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة؟

يعني: أنَّ وجودهما في الحياة الدّنيا مؤقّت؛ ذلك لأنَّ الحياة برمّتها زائلة: {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[119]. ولأنَّها الزائلة وهما جزء منها إذن، لا شكّ أنَّهما الزائلان.

ولأنَّ لكلّ منهما أثره على قيد الحياة، حيث أثر الوجود البقاء: (بقاء المخلوقات)، وأثر العدم الفناء: (رفات الفانيات). إذن: لا شكّ أنَّ لكلّ منهما وجودًا.

وقد يتساءل البعض:

ألا يعني ذلك كمن يقول: العدم أصبح وجودًا؟

لا شكّ أنَّ العدم وجود دالّ على وجود الفانيات، ولكنَّه لم يكن الوجود بأسره، بل هو جزء منه؛ ولذلك فالوجود عكسه الفناء وليس العدم. أي: إنَّ أثر الوجود بأسره هو الخلائق، أمَّا العدم فهو أثر رفات تلك الخلائق وما تتركه من بصمة.

ولأنَّ العدم لو لم يكن موجودا ما ترك أثرًا، إذن: فالقاعدة المنطقيَّة:

---

[119] الرّعد: 26.

كلّ أثر موجود

العدم أثر

إذن: العدم موجود

ولكن ماذا يعني: أنَّه موجود؟

يعني: أنّ العدم فعل من أفعال الوجود؛ فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم مرتبط بالوجود ولا ينفصل عنه، فحيث ما حلّ الوجود حلّ، أي: لو لم يكن الوجود، هل يمكن أن يكون العدم؟ ولهذا فالعدم وجود، ولكنّه لم يكن الوجود.

فالعدم مع أنَّ وجوده متحقّق في الحياة الدّنيا، فإنَّه لن يكون كذلك في الحياة الباقية؛ ممّا يجعل بقاء الوجود في تلك الحياة بلا عدم.

ولأنَّ الحياة الدّنيا مؤسّسة على البداية والنّهاية؛ فهي زائلة، ولأنَّها زائلة؛ فلا وجود ولا عدم.

وعليه:

فالوجود والعدم حقيقة لا فارق فيها، فحيث ما حلّ الوجود حلّ العدم، وكذلك حينما ينتهي الوجود ينتهي العدم، وفقا للقاعدة العلميَّة: (لكل بداية نهاية).

ولذا؛ فلو لم يكن للعدم وجود ما كان للحياة نهاية، وبما أنَّ العدم موجود وله نهاية، إذن: لا يمكن أن يكون هو النّهاية، بل النّهاية عدم العدم، الذي من بعده تستمرّ الحياة.

ولذلك؛ فالوجود لم يُخلق من العدم، وكذلك العدم لم يُخلق من الوجود، ولكن كليهما مخلوقٌ لأداء مهمّة الحياة المؤسّسة على البقاء الفاني. ولو لم يكن الوجود ما كان للعدم شأن، ولو لم يكن العدم ما كان للوجود شأن. ومن ثمّ؛ فحيثما كان الوجود بالقوَّة، كان العدم بالضّرورة.

الوجود والعدم خُلقا على القوَّة، ولم يكونا موضع اختيار؛ فمتى ما حان وقت الخلق يصبح المخلوق وجودا، ومتى ما وجب وقت انعدامه؛ فلا يكون إلّا عدمًا.

ولأنَّ الوجود عن غير طلب ولا رغبة؛ فكذلك العدم يتحقّق بالقوَّة عن غير طلب ولا رغبة.

ولذلك فالقاعدة:

كلّ وجود يلازمه عدم.

الكون وجود.

إذن: الكون يلازمه عدم.

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا ليست وجودًا مجرّدًا، بل وجودًا وعدمًا؛ ولهذا فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنَّنا نعلم ذلك؛ فعلينا أن نفكّر في كلّ شيء أكثر من مرّة، قبل أن نقدم على فعل شيء، ولأنّنا مخلوقون؛ فعلينا أن نفكّر وجودا وعدما،

ولا نبقى على غير صفاتنا التي بها تميّزنا خلقا: {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[120].

ولأنَّنا على قيد الوجود أحياء؛ فإنَّنا لن نكون في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فإن كنّا في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فغيرنا لن يعدّنا إلّا عدمًا؛ ولذلك لا ينبغي أن نكون كما تنصّ عليه مقولة الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر، إذن: أنا موجود)[121]. بل ينبغي أن تكون مقولتنا: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، وبمقارنة المقولتين نتبيّن الفارق بينهما؛ فالمقولة الأولى (أنا أفكر، إذًا أنا موجود) تضع التفكير شرطًا للوجود، وكأنَّ الذي لا يفكر غير موجودٍ؛ فالكون والوجود والعدم والأنهار والمحيطات على الرَّغم من وجودها لكنّها لا تفكّر؛ فهل عدم مقدرتها على التفكير يلغي وجودها؟

أمَّا المقولة الثانية: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر) تضع الوجود شرط للتفكير. أي: لو لم يكن ديكارت موجودا ما فكّر فيما يفكّر فيه؛ ولذا فمن يكون موجودًا ولا يفكّر فلا يعدّ عقله إلّا عدمًا.

أمَّا قوله: (أنا أكون، أنا موجود I am, I exist)؛ فهو كمن يقول: لا أشكّ في وجودي، وهذه المقولة مع أنَّها جاءت سابقة على قوله: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، لكنَّها أكثر وثوقًا؛ فالموجود لو لم يكن موجودًا ما سُئل عن وجوده؛ ممّا يدعو الموجود إلى عدم الإجابة؛ ليكون امتناعه عنها أكبر دليل على وجوده، ومن ثمّ، يعوّض الوقت الذي

---

[120] التين: 4.

[121] ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ص 190

أضاعه زمن استماعه لذلك السؤال، ويصبح الوقت بالنسبة له لم يعد صفرًا.

موت الموت

الموت إنهاء حياة ووجود عدم، أمّا موت الموت؛ فهو إنهاء الحياة والوجود؛ ولذا فالموت فعل تحقيق العدم وجودًا.

ومع أنَّ الموت يواجه الحياة، فإنَّه لا يواجه الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من ينكر وجود الموت على قيد الحياة وجودًا؟

ولأنَّها الحياة الدّنيا؛ فهي: (حياة وموت) وهذا يعني: (أنّ نصف الحياة موت)، ولو كانت الحياة الدنيا طلبًا، فمن يطلبها؛ سواء أكان يدري أم لا يدري؛ فهو يطلب الموت، حيث لا حياة إلّا والموت يرافقها.

فالموت والحياة كفّتا الوجود، والوجود على مستوى الشيء واللاشيء يمكن أن يكون أحياء، ويمكن أن يكون معدومين؛ فوجود الأحياء وجود خلق، ووجود العدم وجود موت؛ ولذلك فالخلق أثره وجود الأحياء من كلّ نوع، والعدم أثره وجود الأموات من كلّ الأنواع.

وسيبقى الموت حيًّا ما بقيت الحياة، وسيبقى الأموات أثرًا ما بقي العدم، إلّا الموت عندما يموت لا يترك أثرًا؛ ذلك لأنَّ الموت لم يكن أثرًا إلّا على الأحياء؛ في حين أنّ العدم لا يكون أثرًا إلّا على الأموات؛ فكما أنَّ النّهاية مصير الحياة الدّنيا التي تشكّل 50% من الوجود؛ فكذلك النّهاية مصير الموت الذي يشكّل نصف الوجود الآخر.

فعندما تكون الحياة الدنيا تساوي 50% من الوجود، يكون الموت مساويًا 50% منه، وعندما يصبح العدم 100% وجودا، تكون الحياة مساوية صفرا. وفي المقابل عندما تكون الحياة الآخرة 100% وجودا يصبح العدم صفرًا حيث لا موت.

ومن ثمّ؛ فالموت لا يخيف؛ حيث لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئًا أكثر ممّا يفعله، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودًا ولا موت.

ولأنَّ الحياة الدنيا لا تساوي إلّا 50% من البقاء، في مقابل 50% موت، إذن: فالحياة الدنيا جاءت منقوصة: (فاقدة لمعطيات البقاء)؛ ولأنَّها المنقوصة فسميّت: (الدُّنيا) أي: الحياة السُّفلى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[122].

ولذا؛ القاعدة المنطقيَّة تقول:

كل مخلوق فانٍ

الموت مخلوق

إذن: الموت فانٍ

والتساؤل:

إذا الموت قضى على الحياة؛ فمن الذي سيقضي على الموت؟

[122] الأعلى: 17.

لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق، والخالق هو الذي: {يُحْيِي وَيُمِيتُ}[123].

ولأنَّ الحياة مخلوقة والموت مخلوق، وأنّ لكل مخلوق بداية ونهاية، إذن: فلا مفرّ للموت من الموت: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[124].

وعليه:

فالخَلق فعل تسبقه هيئة لصورة لم تكن؛ فأصبحت قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهو وجود ما لم يكن موجودًا، سواء أكان كونًا بأسره، أم شيئًا منه: (حيّزًا أم فراغًا أم حيويَّة أم مجرات أم طاقة أم كواكب ونجومًا، أم أنَّه خَلق من هذه الأجزاء كما هو حال الأزواج التي منها آدم وزوجه).

ولأنَّ الخلق فعل الخالق؛ فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كن)، ولكن للصّيررة وجود أيضًا؛ فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

أمَّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن

[123] البقرة: 258.

[124] الرحمن: 26، 27.

يتخلّى عن القيم والفضائل إلى الانحدار والدونيَّة، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

ولذلك، ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا، أصبح الصّعود للقمّة مطلبًا وأملًا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[125]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدونيَّة، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك؛ فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

فبنو آدم بعد أن هدأت أنفسهم بالأنباء والرّسالات بدأوا يتذكّرون ما يؤلم ويعملون على تفاديه اتعاظا، ويتدبّرون أمورهم تحدّيًا للعوز والحاجة، ويفكّرون فيما يجب ارتقاء ويسعون إليه عملًا؛ فنظروا إلى الخَلق وهم يتأمّلون فيه كيف خُلق: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[126]، حتى عرفوا أنَّ الخَلق لم يكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فاستطاعوا أن يميّزوا بين الصّعب والمستحيل؛ فالصّعب قبلوا

---

[125] : 29.

[126] الغاشية: 17.

بتحدّيه ساعة بساعة، أمَّا المستحيل؛ فهو ما يحول بينهم وبين إمكانيَّة فعله.

ولأنَّه كذلك؛ فلا يُفعل إلّا فعلا حيث لا إمكانيَّة لعمله؛ فالعمل في دائرة الممكن يتطلّب جهدا لينجز، أمَّا الفعل فلا يكون إلّا بالأمر النّافذ، والأمر النّافذ لا يكون إلّا من الفعّال له، ومن هنا، يصبح المستحيل مستحيلًا.

إنَّ العلاقة بين الخَلق والمستحيل علاقة وجود الشيء من لاشيء، ثمّ وجود المستحيل خلقا من الشيء المستحيل (خَلق الشيء من الشيء) كما هو خلق الأرض، وخلق الأزواج منها، ثمّ خلق التكاثر من التزاوج (شيء مستحيل من شيء مستحيل)؛ إذ لا إمكانيَّة لخلق ما يُخلق.

ولهذا؛ فلا خَلق إلّا ومن ورائه خالق، والخالق لا يُمكنه أن يَخلقَ نفسه؛ فلو قبلنا بخلقه لنفسه؛ فلا استغراب أن يخلق غيره؛ فالكون الذي قال البعض عنه: إنَّه خَلق نفسه، ولا خالق من ورائه؛ فلو كان كذلك؛ لكان على المقدرة التي تجعله يخلق غيره.

ومن ثمّ؛ فالخالق يَخلق ولا يُخلق. ومن يُخلق، سيظل جاهلًا بقواعد الخلق التي خُلق عليها؛ ذلك لأنَّ قواعد خلق المخلوق تسبقه؛ فلو لم تكن ما كان، وهي التي لا تكون إلّا بيد الخالق؛ فالمخلوق بإمكانه أن يفكّر في نفسه وفي غيره، ولكن التفكير في النّفس والغير لا يزيد عن كونه تفكيرًا داخل دائرة الممكن، التي إن تمكّن منها الإنسان تمكّن من معرفة المستحيل إعجازا. ومع ذلك فآفاق المعرفة مفتّحة: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى

الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[127]. أي: لا ينبغي أن يتوقّف التفكير الإنساني عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)، بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفيَّة التي خُلقت عليها؛ فعليهم أن يفكّروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل؛ فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل هو ما لا يتمكّن المخلوق من خلقه؛ ذلك لأنَّ المستحيل لا يُخلق إلّا فعلًا: (إذ لا جهد يبذل)، أمّا الممكن فيُخلق عملًا: (إذ الجهد يبذل).

فقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري، بمعنى: ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الإبل؟)، أي: لِمَ لا تنظرون إلى الكيفيَّة التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تقفوا عاجزين، وحينها تتيقّنون بأنَّه لا إمكانيَّة أن يخلق المخلوق نفسه.

ولذلك؛ فأوّل ما يجب أن يفكّر فيه العاقل، هو: النّظر إلى الخَلق والتأمّل فيه بلا حدود، حتى تُدرك الكيفيَّة التي عليها المخلوقات لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيَّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرّد (الكيفيَّة)؛ ولذلك فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني؛ فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكنّ الله جعله على التخيير؛ فلا إكراه، بل يجب أن يمكّن الإنسان من

[127] الغاشية: 17.

المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك، فإن اختار ما يسيء لخَلقه؛ فالعيب لا يلحق إلّا من لم يضع البيّنة بين يديه بيّنة.

ومع أنَّ معرفة الكيفيَّة الخَلقيّة أمر مستحيل، فإنَّ النّظر إليها بأعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد، الذي يحفّز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرًا.

ولأنَّ النّظر إلى الكيفيَّة الخلقية يُمكّن من معرفة المستحيل؛ فكذلك النّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء يدفع إلى كلّ ما يمكّن من الارتقاء: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[128]؛ ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقي هي:

علاقة خَلق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذن: فالنّظر إلى الشيء ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبّر الإنسان أمره عن معرفة وبيّنة؛ ولهذا وجب النّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء؛ فالنّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت يمكّن الإنسان من معرفة المزيد استكشافًا؛ فمعرفة الكيفيَّة متى ما ألمّ بها الإنسان تمكّن من الصّعود وبلوغ المزيد من الارتقاء؛ إذ لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة، أي: بما أنَّ بني آدم يمتلكون المقدرة؛ فليرتقوا إلى السّماء بلا تردّد، ومتى ما عرفوا كيفيَّة الارتقاء عرفوا إمكانيَّة المزيد منه حتى يبلغوا معطيات ذلك الانفتاق العظيم، ومعطيات كيفيَّة رتقه من جديد. وحينها سيكتشفون ما لم يسبق لهم

[128] الغاشية: 17 . 20.

اكتشافه؛ فلينظروا إلى السّماء، ثمّ ينظروا إلى الكيفيَّة التي بها خُلقت وارتقت إلى هناك بعيدا عن الأرض التي فتقت منها. فالنّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي بها فُتقت السّماوات والأراضين أكوانا، والتي عندما يتمّ التعرّف عليها يصبح الارتقاء قمّة متجاوزًا لإحداث النُّقلة المأمولة.

ومن ثمّ؛ فلا داعي للتأخّر، بل ينبغي الإسراع بلا تسرّع، والنّظر في الكيفيَّة التي رَفعت السّماء الدّنيا عن الأرض الدّنيا، كما رفعت بقيَّة السّماوات والأراضين طباقا؛ فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن معرفة الكيفيَّة التي عليها الخَلق: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) ولا يغفل عن النّظر إلى الكيفيَّة التي بها تمّ الارتفاع: (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)، أي: لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من الارتفاع عن كلّ دونيَّة؛ ذلك لأنَّ التفكير فيما يؤدّي إلى الارتفاع يمكّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

إنَّ النّظر إلى الكيفيَّة التي رَفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي بها يتمّ تجاوز الجاذبيات جاذبية بعد جاذبية؛ فهي لم تكن شيئا مستحيلًا، حتى وإن كانت على الصّعوبة؛ ولذلك فالنّظر إلى الكيفيَّة يُمكّن من تحدّي الصّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري؛ أي: لو لم تكن الصّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوى حيوانيًّا، لا يفكّر إلّا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصّعاب ما كان التذكّر واعظا، ولا التدبّر موقظًا، ولا التفكّر مرشدا.

ولأنَّ العقل الإنساني يمكّن من الفُسحة في كيفيَّة الخَلق والنّشوء والارتقاء؛ فهو الممكّن من معرفة ما يؤسّس للعمل أو ينشئه عملًا، ولكن

يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ ولهذا جاء الخَلق مشاهدًا وملاحظًا حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقّف عنده وكأنَّه النّهاية، بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفّزًا على ما يمكّن من تجاوزه بناء وإعمارًا؛ ولهذا فالنّظر إلى كيفيَّة خلق الإبل يمكّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلّا بفعل الخالق، والنّظر إلى كيفيَّة رفع السّماء يمكّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه من آفاقٍ أمام العقل البشري إن أراد ارتقاء، وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصّعب والمستحيل؛ فالمستحيل: (ما لم يتمّ بلوغه) على الرَّغم من فسح كلّ شيء أمام العقل البشري، أمّا الصّعب؛ فهو الممكن على الرَّغم من صعوبته المحفّزة على قبول التحدّي؛ ولذلك فالنّظر إلى السّماء كيف رُفعت، نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)؛ ولهذا بدأ الإنسان مؤخّرًا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنَّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء.

أمَّا النّظر إلى كيف نُصبت الجبال: (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) فيُمكّن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمال، أي: يُمكّن من علم الهندسة في التصميم والعمران؛ فقوله دلالة: أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟ هو قول يُمكِّن من التدبّر، أي: وكأنَّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيَّة التي عليها أنشأت الجبال؛ فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاؤون؛ فالنّشوء في دائرة الممكن وإن كان صعبا؛ فهو ليس بمستحيل؛ فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالًا من الأبراج إن استطعتم. وفوق ذلك، لا ينبغي الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السّماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السّماء، بل يجب التفكّر

فيها، وكيف خُلقت ورُفعت ونُصبت؟ ثمّ التفكير في الكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) حتى تعرفوا كيف تعمروها وتستخلفوا فيها علما وحضارة وارتقاء، وكيف تنشئون فيها حياة تمهّد لعلاقات إنسانيَّة مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتج يمكّن من إحداث النُّقلة.

إنَّ النّظر في أيّة كيفيَّة هو نظر تفحّص من أجل التبيّن الذي به تتمّ المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير الممكّن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد؛ ولذلك فمعرفة كيف سُطِحت الأرض معرفة علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهميَّة القيم في تحقيق كرامة الإنسان.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفيَّة التي بها سُطِحت الأرض، عرف الكيفيَّة التي بها يتمكّن من العمل، الذي لا مستحيل أمامه سوى المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازا؛ إذ لا خَلق إلّا بفعل الخالق.

ولأنَّ الخَلق يُفعل؛ فهو الذي يُفعل بغير جهدٍ؛ ولذلك فالخالق يفعل ما يشاء كيفما يشاء أمرًا، أمّا المفعول فهو الذي لا رأي له حتى في وجوده؛ ولذلك فلا وجود لشيء إلا بفعل ليس بيده.

ولأنَّ لكلّ شيء صفة؛ فصفة الخَالق لا يمكن أن تكون صفة المخلوق؛ ولهذا فلا يمكن أن يكون المخلوق خَالقا؛ ذلك لأنَّ الخَلق ليس

من صفاته، والخالق لا يُخلق لأنّ صفة الخَلق لا تكون إلّا بأمره، ومن يرى غير ذلك اجتهادا؛ فَلِمَ لم يكن خالقا لنفسه؟ ولِمَ لا يخلق غيره؟

ولأنَّ لكلّ مخلوق صفة خُلق عليها، وتميّز بها؛ فلا شكّ أنَّه سيظل عليها متميّزًا عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخاصيّة؛ ولهذا سيظل للكون الدّنيويّ صفة تختلف عن صفات الأكوان الأخرى التي تعلوه طباقًا، بمعنى: سيظل كوننا على صفته وإن حدثت فيه تغيّرات أنقصت من حجم ظلمته أم زادتها اتساعًا، أو أنقصت من عدد مجراته أم زادتها عددًا، وهكذا يمكن أن يصبح الفراغ بين تمدّد وانكماش ولكلّ وظيفته وجود.

ولأنَّ لكلّ مخلوق هيئة، ولا هيئة للخالق؛ فكان الكون على هيئته يتمدّد متسارعا، حتى يُرسم شكله وفقا لما هيأ عليه كونا، أي: لو بلغ الكون حدود وجوده كونا، لرُسِم له الشكل الذي لا يكون إلّا على هيئته؛ ولهذا فهيئة الخلق علم الخالق، أمّا هيئة ما يره المخلوق؛ فهي في ذِهنه هيئة، وستظل هيئة حتى تأخذ شكلًا أو صورة بها تُدرك من قبل الغير.

والخالق لا يمكن أن يُخلق من عدم؛ فالعدم لا يكون إلّا وجودًا حتى وإن كان رفاتًا، فالمعدوم مفعول، والمفعول يفعله الفاعل؛ ولذلك فالمعدوم هو: من لم يكن على قيد الحياة وجودا، ولكنّه على قيد الوجود عدم. وهذا يدلّ على وجوده السّابق قبل أن يصبح عدما بفعل الموت الذي لاحقه حتى النّهاية.

ومن هنا؛ لا يمكن أن يكون الخَلق من عدمٍ، بل الخَلق من لا شيء يذكر، أي: وجود ما لم يكن موجودا، سواء أكان مادّة أم ليس بمادّة؛ ولهذا فالخَلق كيفيَّة تظهر الهيئة في صورةٍ أو شكلٍ؛ فتلفت المخلوق العاقل لنفسه ثمّ لغيره؛ ليأخذ بأسرار الخَلق في صناعة ما يمكن أن ييسّر له الحياة ارتقاء.

وبالنّظر لخلق الكون وفقا لِما تمّ اكتشافه وتيسّر للمعرفة؛ فهو المخلوق الذي لا سيطرة له على نفسه؛ فهو كون متمدّد في تسارعه؛ من أجل بلوغ النّهاية التي لم تكن من مكوّنات وجوده، فالكون لو كان خالقًا لنفسه ما كان يتمدّد متسارعًا تجاه نهايته.

إنَّ الكون الذي نحن فيه خُلق مع غيرنا من الخلائق، لو كان خالقًا لما كانت له البداية تمدّدا والنّهاية انكماشًا، أو فتقًا ورتقًا، أو كما يقولون انفجارًا وتجمّدًا، وحتى إن اختلفت الرؤى؛ فقد اتفق أصحابها من مفكّرين ومفسّرين وعلماء فيزياء وفلك على أنّ للكون بداية ونهاية؛ ولهذا نقول: خالق البداية والنّهاية سابق على خلقهما، ومن يكون بينهما خلقًا؛ فلا يمكن له أن يكون خالقا، وهذا بالتّمام حال الكون الذي لو لم يكن من ورائه خالق ما كان بين البداية تمدّدا والنّهاية انكماشًا.

ولأنَّ الكون لم يكن خالقا لنفسه؛ فهو على علاقة بأكوان أخرى، أي: لو كان خالقا لنفسه ما وجدت أكوان إلى جانبه، وهي التي فُتقت منه وفُتق منها، أكوان تعدّدت والخالق واحد لا يتعدّد، إنّه الواحد الذي يُعد ولا يتعدّد؛ ذلك لأنَّ الواحد (الخالق) لا سابق عليه، أمّا الواحد المتعدّد؛ فلا يكون إلّا والصّفر نقطة شروعه ارتقاء، أو لحظة فنائه انحدارًا

(بداية ونهاية)؛ ولذلك فلحظة الصّفر قبل كوننا كانت الرتق، ومن بعده ستكون لحظة الصّفر رتقا من جديد، ممّا يجعل لحظة الفتق بداية وجود متمدّد، ولحظة الرّتق وجودًا منكمشًا.

ومن هنا، يتّضح جمال كوننا تمدّدا وانكماشًا، فكلّ شيء فيه نراه كمالا نراه بعد نظرة لا يزيد عن كونه نقصًا؛ ذلك لأنّ النّظر في الكيفيَّة يختلف عن النّظر إلى الشّكل والصّورة؛ فمهما عظم شكل الكون أو صورته؛ فلا يؤتمن جانبه؛ فهو المملوء براكين وصواعق وزلازل وشهبًت ومجرات ونارًا وظلمة وماء وسماء، إلى جانب شياطين الإنس والجنّ، مع وافر القلق والألم والوجع والخوف، ثمّ الموت.

ولهذا؛ فالحياة فيه يملؤها الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل واليأس، ومع ذلك؛ فهو المهدّد بالزّوال الذي لا يكون إلّا فجأة: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}[129]. ولأنّه كذلك؛ فلا كمال فيه؛ ولهذا مهما تحقّقت فيه من آمال؛ فهي ستكون منكسرة ما لم ترتقِ بأصحابها إلى رتق السّماوات والأرض؛ لتكون الحياة عيشا رَغِدا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة.

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا مع أنّها مملوءة بثروات ونعم، ولكنّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل؛ ولهذا بُعثَ الأنبياء والرّسل جميعهم من أجل العمل الصّالح: {وَقُلِ اعْمَلُوا}[130]، ومع ذلك؛ فالحياة الدّنيا بداية ونهاية، هي حياة ألم: (ألم الولادة وألم الموت). وسيظل الألم مستمرًّا ومتسارعًا مع

---

[129] الأنعام: 31.

[130] التوبة: 105.

استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

ولذلك سيظل الكون متمدّدًا حتى النّهاية التي يقف عندها الألم صفرًا، وهي لا تكون إلّا بعلّة أو سبب، ولأنّها لا تكون إلّا بهما؛ فهي متى ما حدثت وفّرت لنا حُكمًا بأنّ الكون لم يَخلق نفسه، بل خلقه الذي جعل له بداية صفريّة ونهاية صفريّة، وهي التي من بعدها ينكمش بملامسة ما يُعيده لرشده من حيث انفتق وتمدّد.

ولأنَّ الكون لا يتوقّف أو ينكمش عن تمدّده إلّا بعد بلوغه نقطة الصّفر التي متى ما استشعرها أو لامسها انكمش حتما، إذن: فليس له بدّ إلّا التوقّف أو الانكماش إلى حيث نقطة البداية التي تعيده إلى الاستقرار بلا مخاوف، ومن ثمّ؛ عندما يبدأ انكماش الكون فانكماشه سيزيح فراغًا من خلفه، وفي المقابل سيترك فراغًا من أمامه، ممّا يجعل ذات الحركة مؤثرة على بقية الأكوان انكماشًا، حتى تعود إلى نقاط رتقها التي انفتقت منها أكوانًا، والتي من بعدها سيصبح الكون المرتق كونا عظيما: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[131].

ولأنَّ الوجود لم يُخلق كلّه من لا شيء كما هو خَلق هيئة الكون؛ فهناك على الكثرة أشياء خُلقت نشوءا من الكون كما هو نشوء الأرض مكوّرة، ونشوء آدم وزوجه منها نباتًا: {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

[131] الأنبياء: 104.

نَبَاتًا}[132]، ثمّ نشوء التكاثر تزاوجًا، وكلّ هذه المخلوقات سواء أكانت من لا شيء أم من شيء قد أوجدت ثلاث دعائم تمكّن من معرفة الكيفيَّة التي كان عليها المستحيل خَلقًا: (خلق الوجود من لا وجود)، والتي كان عليها الإعجاز نشوءًا (خلق الشيء من الشيء)، والتي يكون عليها الممكن ارتقاء: (بين كينونة وصيرورة)، فهذه الدّعائم تُمكّن من ربط العلاقة بين الخالق والمخلوق بما هو: (مستحيل ومعجز وممكن).

ولأنَّ المستحيل هو خَلق بلا سابق: (وجود لم يسبقه وجود)؛ فينبغي النّظر إليه حتى بلوغه مستحيلا، وكذلك المعجز وهو خلق الشيء من الشيء ينبغي النّظر إليه حتى بلوغه شيئا معجزا، أمَّا الممكن فهو مَكمن الخوارق؛ فمن بلغه عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازًا، ومن بقي في دائرة المتوقَّع؛ فلا إمكانيَّة لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

[132] نوح: 17.

قاعدةُ النّظريَّة

تأسّست النّظريَّة على دعائم ثلاثة:

. المستحيلُ خَلقًا.

. المعجز نشوءً.

. الممكنُ ارتقاءً.

وكلّ منها مؤسّس على اللحظة الصّفريَّة؛ إذ لا شيء يُخلق أو ينشأ وينمو أو يرتقي إلّا في لحظة الصّفر وجودًا، والتي من بعدها يصبح الزّمن مستوعبًا له بداية ونهاية.

ولأنَّ الصّفر نقطة البداية فكذلك هو نقطة النّهاية؛ فالكون قبل أن يكون كان الصّفر دلالة على عدم وجوده، ثمّ بدأ تمّددا إلى النّهاية التي لم يصلها بعد، وهي التي سيقف عندها صفرا؛ فالصّفر لا يدلّ إلّا على وجود ما هو أعظم؛ ولذلك فهو يشير إلى وجود الأهم والأعظم بداية ونهاية؛ إذ لا شيء يخلق نفسه؛ فلو كان للشيء إمكانيَّة خلق نفسه، لكان الصّفر أوّل الخالقين لنفسه؛ ولهذا فالصّفر نقطة البداية لكلّ وجود، وهو نقطة نهايته، ومن ينطلق من الصّفر بداية لا بدّ وأن يقف عنده نهاية.

ومن يقول: كيف يكون الصّفر نقطة البداية والنّهاية، ولا يوصف بوجود؟

أقول:

لا يعدُّ الصّفر وجودًا؛ كونه لا يزيد عن متفق عليه تسمية؛ إذ لا شيء وجودًا.

المستحيلُ خلقًا

هو ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنَّه كائن؛ فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنَّه لا وجود. إنَّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه، وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقَّع، أمَّا المستحيل فلا إمكانيَّة؛ حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِدُ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنَّه القوَّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره، ومع ذلك فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوَّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلا.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيمًا، ومع أنَّ المستحيل شيءٌ يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنَّه شيء ونتحدث عنه؛

فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن ورائه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمَّا معظم النَّاس؛ فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوَّة فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملًا قابلًا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجزًا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنَّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها؛ ومع ذلك يرى البعض أنَّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعًا، أي: لا إله من ورائه، وكأنَّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنَّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببًا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق

وأن فُتقت؛ لتعود إلى حالتها الطبيعيَّة التي خُلقت عليها عوضًا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقًا.

وبما أنَّ الفزيائيون واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدًّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصيَّة ليس بحكم علميٍّ، بل مجرّد آراء لا تتعدّى نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنَّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن وفقًا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلٌ لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنَّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملا، فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمَّا المستحيل كذات؛ فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازًا؛ حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي

النَّاس في كلّ جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها؛ ولذا فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلًا.

فالكون الذي قالوا عنه: خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق، وليس للشيء المشار إليه بأنَّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنَّ وجودَ الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوَّل: (الخالق) وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلًا؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق مستحيلًا، فإنَّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يَخْلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلقٌ مستحيلٌ؛ إذن فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق؛ ولهذا كان خلق الكون مستحيلا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوّة اختراق لكلّ قوّة وإن اجتمعت، فقوّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقًا أعظم، وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقفٍ له، أو مفجّرٍ، أو راتقٍ له؛ إذ لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته؛ حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها؛ ولذلك فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانيَّة لرؤية المصوِّر المطلق؛ كونه لا يُصوَّر؛ ولهذا فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنَّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئا، إذن: فكيف للكون كونه شيئًا أن يكون مشيئًا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنَّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنَّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئًا من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنَّهم قد خُلقوا من ترابٍ، وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم

يعلمون أنَّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنَّ آدم من تراب، ولم يكن ترابًا فمن الذي خلقه آدمَ؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنَّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئًا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونًا عظيمًا كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[133].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[134]. فكيف بمن لم يكن سابقًا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها، وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه

---

[133] الأنبياء: 30.

[134] الزّمر: 62.

لا إمكانية أن يخلق الشيء نفسه، أي: كيف لمن يعرف أنَّه خُلق من نطفة أن يقول شيئًا غيرها؟

ولأنَّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذن: فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء: (تراب أو نطفة) ليستقرأ بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. إنَّها المسلّمة لمن يدرك أنَّه لم يَخلق نفسه؛ لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنَّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنَّ أبويه: (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم: إنَّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنَّهم يؤمنون بخلق الأشياء، ولكنّهم عندما وقفوا عند أكبرها: (الكون)، قالوا: إنَّه شيء، ولكنّه خالق، وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

ـ هيئة الشيء تسبق الشيء وجودًا.

ـ وراء كلّ شيء مشيئة.

ـ وراء كلّ مخلوق خالق.

ـ الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا؛ فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونًا، والخَلقُ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[135].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن ثمّ؛ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارعًا في تمدّده، ثمّ خُلق منه وفيه ما خلق مستحيلًا، وكلّ ما خُلق استحالة، لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلًا، إذن: فلا إمكانية لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلًا، ومن هنا، استقرأ علماء الفيزياء والفلك وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع أنَّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، فإنَّ ما هو أعظم أنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب؛ لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[136]؛ فقوله: (فكيف خلق) هنا يكمن المستحيل حيث لا إمكانية لمعرفة الكيفيَّة: التي بها خلقت الأكوان طِباقًا؛ ولأنَّ معرفة: (كيف؟) أمرٌ مستحيلٌ؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ

---

[135] البقرة: 31.

[136] نوح: 15.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[137]، أي: بعد أن كان الكون ملتحما سماوات وأرضين، فُتق مستحيلًا إلى سبع سماوات وسبع أراضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل.

ولذلك؛ فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى أن خلق الشبيه فسيظل شبيها؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا؛ إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عملٍ يصبح مفعولًا شكلًا أو صورة أو شيء مشاهدًا وملاحظًا، ولأنَّه المفعول فلا يكون إلّا بفعل الفاعل؛ ولأنَّه بفعل فاعل المستحيل فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي، فعقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنَّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة.

ولذلك؛ فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلًا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنَّها تتدرّج من الأصعب إلى الصّعب، فخَلق الكون

---

[137] الأنبياء: 30.

وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل؛ ولذلك فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنَّ الخلق من لا شيء (خلق الكون) يبدو وكأنَّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنَّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلقًا منه.

ومع أنَّنا ندرك أنَّه لا صعوبة بالنّسبة إلى الخالق؛ كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالةً استمددنا مثالًا توضيحًا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقًا ومفعولًا من خالق يَخلقه ويفعله؛ ولذلك فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدًا وتسارعًا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونًا مرتقًا.

ولذا؛ فعندما تُرتق الأراضين والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوّل مرّة: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[138]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعل؛ ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمَّا الفعل فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال؛ إذ لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات عيني فقط، أقول لأبنائي: اصمتوا، أو اجلسوا، أو اخرجوا، فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيلٍ، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلّ ما لم يكن مستحيلاً ممكن، والفرق بينهما، هو: أنَّ الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون.

ولهذا، لو لم يكن ممكناً ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

---

[138] الرّوم: 11.

أمَّا المستحيل فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيَّته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث، ولكنَّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته؛ ولذلك فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء؛ وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى، ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لا بدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقينا منها، والمرض أتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنَّه آت وإن طالت أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنينَ؛ فكلّ ذلك ممكنٌ علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وإن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانية، وهنا يكمن المستحيل، أي: إنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرًا نافذًا؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم هو يوم السبت فإنَّ يوم الأحد سيأتي غدًا وفقًا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو ينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة فذلك مستحيلٌ، ولن يأتي الأحد غدًا كما هو متوقَّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة: (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه؛ فالممكن لا يكون

إلّا وفقًا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل، فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا، ينبغي للبحاث أن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلميَّة لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك، وجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعيَّة؛ فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعيَّة فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي لنا أن نتمكّن من معرفته وإدراكه.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرًا ولا تقتصر عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في

الوقت الحاضر، أمّا التطلّع فهو البحث عمّا يُحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاء.

ولذلك؛ فالتّطّلع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة (قف)، أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدًا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلًا؛ ولذا فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا؛ حتى ندركه عجزًا، وحينها ندرك أنَّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقَّعٍ.

ولأنّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[139].

[139] الكهف: 88.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونيَّة يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيارًا؛ ولذلك ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقًا؛ ولأنَّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازًا؛ إذ لا إمكانية لخلق الشيء شيئًا إلّا بمشيء، وحتى إن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على أنفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنَّنا نقول الخالق، إذن؛ فلا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول: الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنَّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ؛ فكلّ شيء يُخلق؛ فهو ليس بالخالق؛ ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودًا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسؤال ليس في محلّه؛ لأنَّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة، حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في

نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنَّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانيَّة له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن) كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان، فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان، كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه: كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببًا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنًا، حتى يسأل عنه كيف كان؛ ولذلك فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون. وبالتالي فأيّ كائنٍ لا يكون إلّا على هيئة ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علمًا، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن

بعد من الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون بوصفه جزيء فيه أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق فهو على غير هيئة؛ كونه على غير صورة، وبالتالي لا إمكانيَّة لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا إنَّه من نطفة، ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنَّه يعلم أنَّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف؛ لعلّك تعرف كيف خُلق، وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق، ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك؛ لعلك تعرف كيف خُلقت، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق، ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك

عن وعي، لا شكّ إنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

المُعجز نشوءًا

النّشوء خَلقٌ من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، ومُعجز قابل للنمو؛ فالخَلقُ كونه غير مسبوق، هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرًا؛ ولذلك فالخَلقُ فعل يسبق المخلوق تحقّقًا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء فهو الخلق ممّا خُلق إعجازًا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[140].

أمَّا النّمو في ذاته فلا يكون نموًّا إلّا في ذات غيره نشوءًا، حيث لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عمليَّة ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّدًا وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموًّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

ولذا؛ فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازًا (نضجًا وعمرًا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه؛ كي ينمو قولا وعملًا وإرادة وسلوكًا، أي: يجب أن ينمو تذكّرا؛ حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلًا وإعجازًا، بهدف استجماع القوّة من التّاريخ المملوء

[140] يس: 36.

بالمستحيلات والمعجزات والتجارب والقصص والمواعظ والعبر، التي تمكّنه عن تدبّر من إنشاء شيء جديدٍ يفوق ذلك الماضي ارتقاء؛ ومع ذلك فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة لمن تدبّر أمره في حاضره ارتقاء، هي بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكنٌ؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان فهو يعلم أنَّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي أن يتوقّف نموًّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنَّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنَّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازًا؛ فهو غير المتوقّف نموًّا وازديادًا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعا؛ ولذلك فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءًا معجزًا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نموًّا، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنَّ فعل المستحيل بيد الخالق؛ فالخالق لو لم يفعل مستحيلًا، ما نشأ الخلق وجودا مُعجزًا، وما أمكن للإنسان ارتقاء، إنَّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى، فحيثما كان الخلق كان النّشوء، وحيثما كانا: (الخلق والنّشوء) كان الارتقاء، أي: لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا، نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلقٌ من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم وزوجه من تراب: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[141]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورًا مشاهدًا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضربَ لهما في الأرض إلّا سلالة؛ ولهذا فخطاهما تمشي عليها استقامَ قامة.

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهمية الأرض؛ كونها الأم الأولى، والوطن الأوّل، الذي فيه بنو آدم إخوة مختلفون، ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس بعيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتلا ابنا آدم؛ حيث سيطرت الشّهوة والرّغبة الشخصانيّة على أحدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنّها العلل المفرّقة بين الأخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من أجل البناء نموّا يطوي الهوة بين الأرض والسّماء عملًا لا اتكاليّة فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنَّ النّشوء منبت الحياة نموّا معجزا فهو لا يتوقّف خَلقًا؛ ولأنّه كذلك فَلِمَ لا يكون كذلك لا يتوقّف ولا يتخلّف على أيدي بني

---

[141] نوح: 17.

آدم، تعليمًا، وصحّة، وزراعة، وصناعة، وبناء وإعمارًا، وإصلاحًا، وغزوًا للفضاء حتى بلوغ الحلّ الممكّن من بلوغ الجنّة نعيمًا وفردوسًا.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق، والنّشوء، والارتقاء علاقة ارتباطيّة؛ فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنَّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلقِ والنّشوء والارتقاء، علاقة بين مستحيل، ومعجز، وممكن؛ فهي علاقة اعتمادية بين السّابق (الخَلق)، والتابع (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)؛ ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق، لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه: ما هو المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة: (ذلك الماضي الّذي نشأ فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا؛ فإنَّ التفكير في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع أنَّ الزّمن في أذهاننا مقسّمٌ بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، فإنَّ التفكير تدبّرًا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا؛ ولذلك فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم إنَّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنَّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطًا دونيًّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة إليهما الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن، فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق؛ حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد: (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه؛ إذ لا مجال للشّروق والغروب، ولأنَّه كذلك فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيئًا مسجّلًا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرًا في الزّمن

الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي الوقت ذاته تعدّ نقطة نهايتها، وهنا يعدّ الزّمن كلّه حاضرا، أمَّا الأعمال في الزّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها؛ ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة؛ حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرًا.

ولذلك؛ فالنَّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها أو تحقيقها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنَّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها، ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في الوقت ذاته بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنَّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنَّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنَّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءًا وإبداعًا منتجًا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا تزيد عن كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرًا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملًا وارتقاء، ومن خفّت موازنه انحدارًا؛ إذ لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطًا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[142].

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوَّلًا: (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنَّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا

[142] العنكبوت: 20.

وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة، إذن: فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة؛ ولأنَّها قمّة كائنة وجودًا فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا، ومن هنا، فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك فالزّمن هو الزّمن، فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثيَّة في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد: (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحديدها وصياغتها.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ، وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن: فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية: (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها؛ لأنّ أمر معرفة الكيفيَّة الآخِرة مستحيل، ولأنَّه أمرٌ مستحيلٌ؛ فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنَّه خارج دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع فلا إمكانيَّة لتصوّره، ولا إمكانيَّة لمعرفة كيفيَّته؛ ولذلك فسيظل المستحيل مستحيلًا وإن علمناه مستحيًلا: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[143].

أي: إنَّ نَشأة أخرى قد حُدّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدًا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا، هي التي لا تكون إلّا ممكنا بين يدي الله، حيث لا استحالة أمامه.

ومن ثمّ؛ فبنو آدم يعرفون أنَّ أساس النّشوء الآدمي من الأرض، وكذلك يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرًا باليًا، ويدركون أنّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ إنَّ للموت نهاية: (موت الموت)، ولهذا؛ فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفيَّة أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلًا: (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولذلك؛ فلا نشوء خَلقي مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقي إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا؛ فلا يلد الشيء المعجز إلّا من الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانًا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنّه وجود آخر، فإنّه لولا الوجود الأوّل ما كان شيئًا آخر؛ ولذا وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

143 الواقعة: 61.

مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[144]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل: (الطّين) المعجز ثمّ: (النّطفة) المعجزة، والنّشوء الآخر جنينًا متكاملًا معجزًا؛ فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولول النّطفة ما كان المولود شيئًا آخر، وهنا، يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزًا واستحالة.

ومع أنَّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، ولكن نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُّنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات؛ ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة؛ ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعيهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوءًا وارتقاء؛ فالإنسان الذي يعلم أنّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل فلا ينبغي له أن ييأس من بلوغ غير المتوقَّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن

---

[144] المؤمنون: 12 . 14.

لا تقتصر على المتوقَّع فقط؛ فلِمَ لا ينتبه الجميع، ويعملون على تحقيق غير المتوقَّع تعليمًا، وإنتاجا، وعدلا، ورفاهيّة، وغزوا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقًا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، ثمّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها؛ لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة؛ إذ كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة، اكتشف شيئًا جديدًا يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة، تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءًا وارتقاء معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءًا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلًا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونيَّة التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية؛ لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه لا زال يحاول وهو بين أمل ويأس، أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزًا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من بعدها شيئًا؛ تعدّ هذه النقطة صفرية؛ إذ لا شيء من بعدها إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية.

المُمكنُ ارتقاء

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يره تطوّرًا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقيَّة لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصيَّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيًّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد

العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيَّة، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي الوقت ذاته يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، لكنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنَّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه

فيها غيره، ومن هنا يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيًا، وجهدا ينجز وفقًا للأهداف المحدّدة، والأغراض التي من ورائها، والغايات المأمول بلوغها قمّة، وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعًا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدًا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلًا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودٌ لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه الممكِن ارتقاء فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقَّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع: (هو كما هو) إثباتًا.

ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقَّع وعلى علله ومسبّباته لاحقًا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقَّع.

فالمتوقَّع وغير المتوقَّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقَّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقًا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقًا لِما هو موجب متوقَّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجؤون؛ كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقَّع موضعًا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيَّات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقَّع موجبًا وما هو متوقَّع سالبًا، وما هو غير متوقَّع موجبًا، وما وهو غير متوقَّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلاً؛ فعلى الإنسان أنْ:

ـ يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقَّع مثلما يخطط للمتوقَّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيّات ويعد البرامج وفقًا لِما هو متوقَّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقَّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقَّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنَّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي الوقت ذاته يتدبّر الإنسان أمره وكأنَّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرًا. أي: إنَّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنَّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يره وكأنَّه الآن يواجهه تحدٍّ؛ ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيًا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة؛ حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلًا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالممكن احتمالًا يسبق ما يمكن أن يكون محتملًا أو غير محتملٍ؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلًا؛ فالممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل؛ ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق؛ ومن هنا يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئًا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّه في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل؛ إذن فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنَّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنٌ، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته، ومحدودية إمكاناته، وعلى الرَّغم من ذلك فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنًا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقَّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقَّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقَّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقَّع مع غير متوقَّع؛ فإنَّ دائرة الممكن تظل واسعة؛ فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنًا، ما كان البحث عنه؛ ولهذا فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضًا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس، الذي كان الأمر بالنّسبة إليه غير متوقَّع؛ وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقَّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات؛ ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقَّعين فعل ثالث غير متوقَّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من قمّة السُلّم السُّلطاني.

ولذا؛ فالعلاقة بين المتوقَّع وغير المتوقَّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازمًا معها، ومن

هنا، يجب التفكير وفقًا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجآت.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنٌ؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لا بدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرَّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمَّا الاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنَّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر؛ حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب؛ وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل

ومواجهة ما يعيقه من صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوَّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزِّناد مرتعشة ، وهنا تكمن العلّة.

إذن: فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توافرت الأفكار والحُجج تجاه القضيَّة الخارجيَّة مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادٌ فلا إمكانية؛ حيث لا إرادة؛ ولذلك فإنَّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمَّ تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنَّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء.

ولأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لا بدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّات فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مساندًا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقَّع وغير متوقَّع، والعاملون عليها هم

وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرعِ بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنَّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ومن هنا، كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلاً من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل ألا يتكرر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيا النَّاس، ويموت الموت، الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ

يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس، والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليات أن تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع، ودون أن يكون من بعد العلم جهلا بذلك الصفر الذي من بعده أصبح الكون وجودًا متمدّدًا ومتسارعًا.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (147) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (147) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.